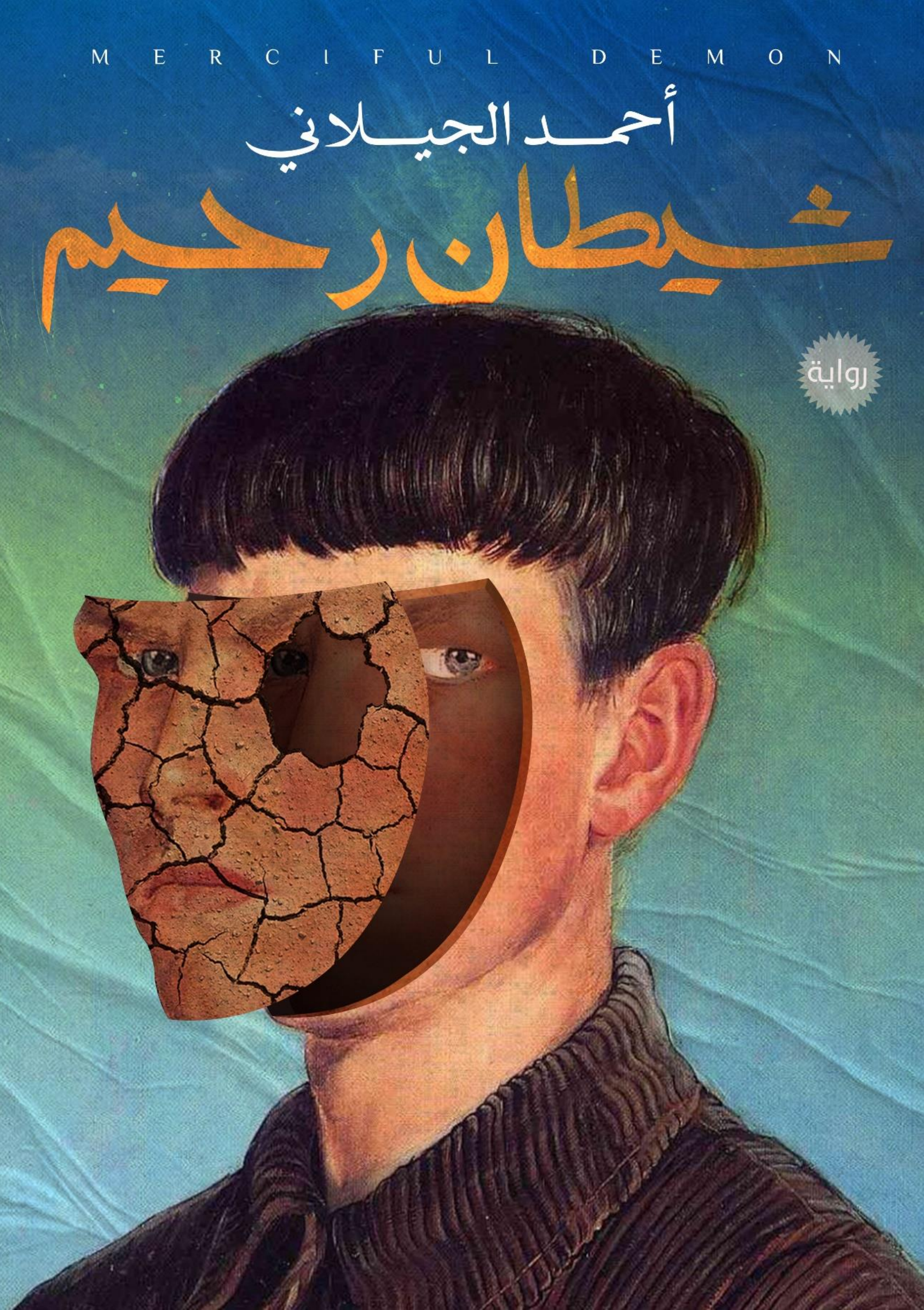

MERCIFUL DEMON
أحمد الجيلاني
شيطان رحيم
رواية

رواية

شيطان رحيم

أحمد الجيلاني

تصميم الغلاف

إسلام مجاهد

التدقيق اللغوي والتنسيق الداخلي

هند محمود

الناشر

عصير الكتب للنشر الإلكتروني

تنويه

أحداث الرواية جميعها من وحي خيال المؤلف، وأي تشابه بينها وبين الواقع فمن قبيل الصدفة.

•••

إهداء

أولًا وثانيًا وثالثًا وحتى آخر العمر، أهديكِ يا أمي سطور هذا العمل وكل عمل كتبته وسأكتبه حتى مماتي، حفظكِ اللّٰه من كل شرٍّ ولا أراني فيكِ أي مكروه.

•••

شكر وتقدير

أقدمه من قلبي إلى كل من:

- الصديق «عمرو سليم»، الذي أوحى إليَّ حديثُه معي بفكرة هذه الرواية.
- الأصدقاء: «مازن علي»، «محمد أبو زيد»، «مصطفى سعد عبد الله» و«دينا أحمد» (أحد مسؤولي مجموعة أسرار الكتب على فيسبوك)، الذين ساعدوني بآرائهم وتوجيهاتهم منذ أن ولدت فكرة الرواية وحتى اكتمال نضجها، ولولاهم بعد فضل الله لما ظهرت الرواية بهذه الصورة.

•••

- الأصدقاء: «د. حسام خليل»، «د. محمد فريج»، «د. بيشوي فريد»، المقدم «أحمد رضا» و«أ. إسلام أبو الحسن»، الذين أمدوني بعديد من المعلومات المتخصصة التي ساعدتني في صياغة العمل على هذه الصورة.
- صديقي وأخي الذي لم تلده أمي، المصمم المبدع والعبقري «مجدي عزمي»، الذي ساعدني كثيرًا في تحضير المادة الدعائية للرواية.
- المدققة اللغوية والمحررة الأدبية المتميزة «هند محمود»، التي أرهقتها بحق في تجهيز هذا العمل وساعدتني كثيرًا حتى خرج بهذا الشكل.

الفصل الأول

في جنح الظلام وبينما الجميع نيام استعدادًا لاستقبال يوم عمل جديد، وصل أخيرًا حسام بعد التهام للطريق استهلك دقائق طوال إلى مسكنه، الذي طالما شهد معه قضاءَه للياليه برفقة عددٍ غير منتهٍ من فتيات الليل، اللاتي كانت آخرهنَّ حبيبة التي عرفها منذ عدة أسابيع في أحد الملاهي الليلية، لتصير شريكة لياليه منذ تلك اللحظة وحتى اللحظة.

•••

ويترجل كلاهما من سيارته الفارهة مخترقين في غفلة من الزمان باب مسكنه، الذي بمجرد تخطيهما عتبته انطلقت حبيبة صوب الصالون لتجلس على أحد مقاعده في انتظار حسام، الذي توجه بدوره إلى البار لتحضير كأسين من الشمبانيا تمهيدًا لاستقبال ليلتهما الحافلة. ويعود إليها بعد برهة حاملًا إياهما ليجدها قد تحررت من بعض ثيابها - بحجة ارتفاع درجة الحرارة- التي كانت في الأساس تكشف من مفاتنها أكثر مما تستر.

كانت حبيبة قصيرةً بعض الشيء، يُتوِّج رأسها شعر أشقر اللون تنساب موجاته الحريرية على كتفيها كلما حركت رأسها، أما عن وجهها فقد كان ذا ملامح طفولية بريئة وقسمات صغيرة

وابتسامة لا تفارقه أضافت إليه جمالًا فوق جماله وروعةً فوق روعته.

جلس الاثنان كلٌّ منهما قبالة الآخر يتناولان مشروبهما في حالةٍ من الصمت، لم يقطعها سوى نظرات حسام إليها التي التهمت جسدها الفاتن البارز الانحناءات التهامًا كما لو كان يراها لأول مرة، قبل أن يبدأ الحديث بمجرد إفراغه كأسه:

- ها أخبريني، هل تفضلين أن تتقاضي أجركِ عن الليلة مقدمًا كالمعتاد أم بعد انتهائنا؟

- كما تشاء، فمنذ الليلة يمكنك اعتباري مِلكَ يمينك تفعل بي ما تشاء، فأنت لم تعد بالنسبة إليَّ مجرد عميل عادي، بل صرت في قائمة الـ«VIP».

•••

ليبتسم حسام من قولها الذي أرادت الثناء به عليه، وهو ما دفعه إلى إخراج رزمةٍ من المال كي يعطيها إياها قبل أن يردف قائلًا:

- أخجلتِني بقولك! حسناً، إليكِ ضعفَي أجرتكِ المعتادة، ولكن بشرط.

- ما هو؟!

- الليلة تعتبر ليلةً مميزةً بالنسبة إليّ، ولذا أريدكِ أن تقضيها كاملةً معي، فما رأيك؟

لتبادله الابتسامة تعبيرًا عن موافقتها على تلك الصفقة الرابحة وتقتنص المال من بين يديه كي تدفنه في جيوبها، قبل أن تنهض على إثر ذلك وتحدثه بنظرةٍ تفيضُ غنجًا:

•••

- شكرًا لكَ على كرمك، هيا بنا الآن؟

حسام بتعجب:

- باكرًا هكذا! ألا تحبين أن تجلسي قليلًا؟ فليلتُنا ما زالت في بدايتها.

- أنت تعرفني جيدًا، فأنا لا أحب تضييع وقتي.

- حسنًا، كما تشائين.

فيتحرك من فوره سعيًا للحاق بها إلى غرفة النوم التي سبقته إليها، ليغلق بابها بمجرد دخوله إليها تمهيدًا لاحتضانها من خلفها كي يقبلها في رقبتها بكل رومانسية، قبل أن ينطق باسمها هامسًا في أذنيها قائلًا:

•••

- حبيبة.

- قلب حبيبة.

- منذ أعوامٍ غدرتِ بي وتركتِني لترتمي في أحضان غيري متعللةً بالظروف، ولكن اليوم لن أسمح لكِ بأن تطعنيني مرةً أخرى وتكرري معي فعلتك، حتى لو كان المقابل إنهاء حياتك إلى الأبد.

لتتسبب هذه الكلمات القليلة في تحول نظرات وجهها وتعبيراته التي كانت تفيض غنجًا ورومانسية إلى تعبيراتٍ غزتها حالةٌ من الرعب والخوف من المجهول المخلوط بالصدمة، لم يُفِقها منه سوى مرور نصلِ سكين حسام الحاد -التي أخفاها في جيبه طوال جلسته- على رقبتها بكل قوة

وسرعة، مفجرًا بذلك منابع الدماء في شرايينها، لتكسو كل ما حولها بالأحمر القاني قبل أن يسقط جسدها على الأرض مؤديًا رقصةَ الموت الأخيرة، حتى سكن إلى الأبد معلنًا خُلُوَّه من أي مظهرٍ من مظاهر الحياة. في الوقت نفسه الذي ظل حسام واقفًا أمامها يتأمل لحظات نفوقها في صمتٍ اختلط بالفرحة الشديدة، لإتمامه جزءًا جديدًا من مهمته التي لم يُكتَب لها الاكتمال بعد.

★★★

في يومٍ عاصفٍ من موسم الشتاء، جلس محمود البالغ من العمر خمسةً وثلاثين عامًا داخل مطعمه المُطِل على أحد شواطئ الإسكندرية، يتابع عبر

•••

نظارته الطبية تلك الأجواء البديعة والمهيبة التي يعتبرها بمثابة مراسم احتفال سنوية أُعِدَّت خصيصًا لغسل وتجديد ثياب عاصمة مصر البطلمية، عادةً ما تبدأ فعالياتها بتوجيه الرياح للسحب من كل حدب وصوب نحو سماء الإسكندرية، لتسارع بدورها في التشقق كي تفرغ ما حملته طوال رحلتها من مطر منهمر على أرضها، في الوقت نفسه الذي تتسابق أمواج البحر نحو الشاطئ بفعل المدِّ والجَزْر وشدة الرياح، لترى أيهم الأجدر بحصد جائزة كساءِ شوارع عروس البحر الأبيض المتوسط بمائها المالح.

في تلك الأثناء وبينما هو على حاله تلك يتأمل ذاك المنظر، نجحَ ذهنُه في استغلال حالة الصمت

والصقيع اللذين خيَّما على المكان بسبب سوء الأحوال الجوية، ليُلقيه بأقصى قوةٍ في محيط ذكرياته تاركًا عقله فريسةً سهلةً لأمواجه تتقاذفه فيما بينها، ليرى شريط حياته في السنوات الخمس الأخيرة التي شهدت معه خليطًا من المشاعر امتزج فيه الفرح بالحزن والسعادة بالكآبة والأمل بالألم.

ويكون أول مشهدٍ في ذاك الشريط من نصيب دلال، حين دخلت منذ خمس سنوات كاملة المكان ذاته الذي يجلس فيه الآن، في أجواءٍ مشابهة، كي تطلب وجبة شواء من النادل، وتجلس بعدها في أحد الأركان انتظارًا لتجهيزها، في الوقت نفسه الذي كانت عينا محمود تتأملان ابتسامتها الساحرة التي لم تفارقها منذ أن عرفها،

وعيني المها اللتين زيَّنتا وجهها ذا الملامح الطفولية البريئة التي لم تختلف عن جوهرها، وشعرَها الحريري البني اللون الذي توَّج رأسها وانسابت خصلاته على كتفيها كما تنهمر مياه الشلال من منبعها.

وتمر اللحظات سريعة عليه، لتغادر دلال المطعم بعد حصولها على وجبتها تاركةً إياه في حالةٍ غير حالته التي كان عليها قبل حضورها، إذ خطفت معها قلبه دون أن يدري، ليظل بصره معلقًا بباب المطعم منذ تلك اللحظة انتظارًا لعودتها التي تكررت بعد ذلك اليوم عدة مرات، شعر حينها بعودة روحه إلى جسمه بعد فقدانها، وهو ما دفعه إلى التقصِّي عنها والتقدم إليها بشكل رسمي بعدما تأكد

من عدم ارتباطها، لتتكلَّل فرحته عند حصده موافقتها وإتمام زواجه بها.

وتُحرِّكه في تلك اللحظة موجةٌ هادئةٌ بعيدًا عن ذلك المشهد، كي ينتقل إلى المشهد التالي، إذ وجد نفسه جالسًا بجوار دلال وهي راقدة في إحدى غرف المستشفى، على وجههما حالة من الفرح والاشتياق وهما ينظران إلى حامد، ابنهما الذي كانت تحمله بين يديها، إلا أنه ما كاد يندمج قليلًا مع ذاك المشهد وسابقه حتى هجمت عليه موجة غاضبة اقتنصت عقله بين مخالبها لتغرقه في حالةٍ حادةٍ من الكآبة حاول جاهدًا مقاومتها والهرب منها، إلا أنه في النهاية وبعد عناء استسلم للأمر الواقع، ليجد نفسه جالسًا بجوار دلال وحامد في

منزلهم يتناولون وجبة الغداء، بينما يتبادلان من حين إلى آخر أطراف الحديث والغزل، وذلك قبل أن تتيبس أطراف دلال في اللحظة التي كانت تطعم حامد في فمه، لتسقط على الأرض من فورها ويبدأ جسدها الغرق في عرقها ويفقد وجهها بشكل مفاجئ ابتسامتها المعهودة، التي استُبدِلت فورًا بملامح غزا الرعب والألم الممزوج بالصدمة كل خلية فيها. حينها هرع محمود إليها ليطمئن عليها، فحدثته بصوتٍ متقطعٍ في محاولة يائسة منها لإفراغ ما في جوفها بعدما أيقنت أن أنفاسها في الحياة الدنيا صارت معدودة:

- محمود، أوصيك بحامد، حافظ عليه فهو كل ما تبقى لك مني، حافظ عليه ولا تدع الحياة تنهشه.

•••

كان وقع تلك الكلمات على محمود على الرغم من قلتها صادمًا مدمرًا، إذ لم يستطع تخيل حياته دونها بعدما صارت هواءه الذي يتنفسه من أول لحظة وقعت عيناه عليها. لتتسبب تلك الصدمة في فقدانه القدرة على النطق لعدة لحظات، إلا أنه وبعد محاولات مستميتة نجح أخيرًا في تخطي تلك الحالة ليضمها إلى صدره بكل قوة كما لو كان يحميها من خطر خفي يحيط بها. تنسال دموعه على خديه فتختلط بدموعها التي كانت تنهمر من عينيها بشكل لا إرادي من شدة الألم، قبل أن يحدثها قائلًا:

- أرجوكِ لا تقولي مثل ذلك الحديث! أرجوكِ لا تتركيني، لا تتركيني!

•••

إلا أنه ما كاد يكمل جملته حتى أمالت رأسها إلى كتفه معلنة خروج روحها إلى ربها، ليحتضن جسدها -الذي صار خالياً من أي نبض- بكل قوة، غير مصدق أنها غادرت ذاك العالم الموحش تاركة إياه فيه وحيدًا بلا أنيس له ولا رفيق سوى ابنه صاحب الثلاثة أعوام.

وتنقلب حياته منذ تلك اللحظة ولعدة أشهر كاملة بنسبة مئة وثمانين درجة، فينعزل عن العالم الخارجي بالكامل مكتفياً بما يُرسَل إليه من إيراد المطعم الشهري، مدفوعًا برغبته في تنفيذ وصية زوجته برعاية ابنه والذكرى الوحيدة الحية المتبقية منها، لتصير في سبيل تحقيق تلك الأمنية جميع أيامه متشابهة، لا فرق فيها بين ماضٍ ولا حاضر ولا

مستقبل، إذ يبدأ يومه باستيقاظ حامد، الذي كان كلما نظر إليه تذكر محبوبته، ليس لوصيتها التي كانت تتردد على مسامعه كلما رآه فحسب، بل لملامح وجهه التي ورث كل تفاصيله عنها، فيرعاه قدر المستطاعِ وينتهي يومه بنوم الطفل ورقوده بجواره استعدادًا لليوم التالي.

ويظل الأمر على تلك الحال حتى اليوم الذي قرر فيه مصطفى -صديق محمود المقرب وشريكه في المطعم- الذهاب للاطمئنان على صديقه، ليُفاجَأ بالتحوُّل الذي أصابه في حياته بعد وفاة زوجته، إذ وجده أشعث الشعر كثَّ اللحية، تحتل تحت عينيه هالات سوداء ضخمة، هزيل البنيان، غير مهتم بنظافته الشخصية أو نظافة ملابسه بسبب قلة

ساعات النوم التي صار يحصدها وشدة المجهود الذي بات يبذله يومياًّ في محاولاته اليائسة لرعاية طفله والتعايش مع عالمه الذي أصبح من دون محبوبته.

ويا ليت الأمر توقف عند ذلك الحد! إذ امتد التحول إلى كل أركان المنزل الذي صار عبارة عن مركز دولي للفوضى وتجمع المخلفات من دون أي مبالغة، فلا شيء في مكانه ولا شيء يحمل بين طياته أي ذرة للنظافة، وهو ما جعل مصطفى يعصر عقله في خلال جلسته مع صديقه ليصل إلى حلٍّ جذريٍّ لتلك المشكلة، الذي تجسد في عبير، قريبة مصطفى التي تعمل مربية للأطفال، إذ اتفقا على أن تتولى رعايته طوال مدة عمله. لتتحمل هي

تلك المسؤولية لقرابة عام، منذ بداية الاتفاق وحتى اللحظة، وهو ما ساعد محمود في العودة تدريجيًّا إلى حياته الطبيعية.

ليفيق أخيرًا من حالة التقلب النفسية التي عاناها بين أمواج ذكرياته، والتي ظلت تتقاذفه فيما بينها منذ الصباح، على صوت رنين الهاتف الذي رد عليه ليجد عبير تخاطبه في الطرف الثاني قائلة:

- ألو، أستاذ محمود معي؟ معك عبير.

- أجل، أسمعكِ يا عبير، ما الأمر؟ هل حامد بخير؟

- أجل، اطمئن فهو بخير، كل ما في الأمر أن بعض أصناف الطعام الخاصة بحامد قد شارفت

على الانتهاء، وكنت أريد منك إحضار بدائل لها عند عودتك.

- حسنًا، أبلغيني بما تريدين وسأحضره معي.

لتبدأ في سرد طلباتها له، في حين يدون هو كل ما تبلغه به، ويغلق الخط معها قبل أن يسرح ذهنه مرة أخرى متذكرًا دلال التي دائمًا ما كانت تملي عليه طلبات المنزل قبل عودته بالطريقة نفسها في أيام حياتها معه، فترتسم على وجهه ابتسامة حملت بين طياتها خليطًا من الحنين والفرحة، وذلك قبل أن يستعيد ذهنه على صوت مصطفى صديقه وشريكه، الذي ما إن رآه على تلك الحالة حتى حدثه مازحًا:

- ما شاء الله! ما لي أراك اليوم سعيدًا على غير العادة؟!

ليبادله محمود المزاح بعد أن أفاق من شروده:

- عجبت لك يا صديقي! دائمًا ما تتعجب لحالي، حزينًا كنت أم سعيدًا، أجبني وأرحني، ماذا أفعل كي أرضيك؟!

فينفجر الاثنان من الضحك قبل أن يستكمل الأخير حديثه:

- كفاك مزاحًا إذًا وتعال لتتسلم مهامك كي أعود أدراجي إلى المنزل ولا أتأخر عن قريبتك.

- حسنًا، اذهب كي لا تتأخر وأبلغها سلامي.

•••

- لك ذلك.

وينهض محمود من فوره قبل أن يرتدي معطفه ويدير كوفيته حول رقبته، استعدادًا للعودة إلى منزله بعد يوم طويل قضاه مع سيلٍ من ذكرياتٍ انهمرت فوق رأسه كانهمار الأمطار، منها ما حاول جاهدًا لدفنه، ومنها ما سعد بتذكره والتعايش معه.

***

في إحدى ليالي الصيف القاحلة، تحديدًا بعد غروب شمس الخامس عشر من يوليو، فتحت فائزة عينيها لتستيقظ متثائبةً من نومها، استعدادًا لاستقبال يوم جديد ضمن دوامة عملها التي لا

تنتهي، فتسارع في التهام وجبة غدائها، أو فطورها إن صح التعبير، كي لا تتأخر على عملها.

لتناديها أمها الراقدة على سريرها من شدة الأمراض قائلة:

- فائزة، هل استيقظتِ يا ابنتي؟

- أجل يا أمي، هل تريدين شيئًا؟

- لا يا حبيبتي، أنا فقط أطمئن عليك.

- حسنًا، ثوانٍ وأنتهي من تناول طعامي وسآتي إليكِ كي أعطيكِ حقنتك اليومية قبل نزولي.

فتنهي طعامها سريعًا وتنهض من فورها كي تعطي أمها حقنتها اليومية، ولما انتهت منها حدثتها أمها:

- أما آنَ لكِ أن ترتاحي من العمل في مهنة التمريض تلك يا ابنتي؟

فائزة دون أن تلتفت لها، في الوقت نفسه الذي كانت تتخلص من مخلفات دواء أمها:

- لقد تحدثنا في هذا الأمر مرارًا يا أمي، إن الراحة لم تكتب لأمثالنا.

- ولكني أتمنى أن أطمئن عليكِ وأراكِ زوجةً في منزلك.

عندها أدارت فائزة وجهها تجاهها، لتحدثها بكل حدة:

- ومن سينفق عليكِ وعلى إخوتي الصغار الذين لم ينضجوا بعد؟! منذ أَن توُفِّيَ والدي وأنا أتجرع المرَّ من أجلكم، هل تظنين أن زوجي المحتمل ذاك سيتحمل كل تلك المسؤولية؟!

لم تجد الأم قولًا ترد به على ابنتها، لاقتناعها بصدق قولها، وهو ما أجبرها على التزام الصمت كمدًا، في حين استكملت ابنتها:

- اعذريني يا أمي، سأضطر إلى مقاطعة حديثك كي لا أتأخر عن عملي في المستشفى وأفقد جزءًا من الملاليم التي أتقاضاها منه كي تكفينا بالكاد نفقاتنا الشهرية.

وتغادرها فور انتهائها من قولها متجهةً إلى دولاب ملابسها الذي أخرجت منه ما يستر جسدها من ملابس فضفاضة يبدو عليها البساطة، لتنطلق بعدها كي تمطي عدة مواصلات بين مناطق الإسكندرية العشوائية أوصلتها في النهاية إلى المستشفى، الذي ما إن دخلته وتأكدت من عدم تتبع أحد لها حتى سارت بهدوء بين طرقاته لتخرج من البوابة الخلفية للمستشفى نفسه وتسير عدة خطوات، قبل أن تركب السيارة التي كانت في انتظارها كي تُقِلها إلى وجهتها الحقيقية.

•••

الفصل الثاني

مرت عدة دقائق استهلكتها السيارة التي تقل فائزة في التهام الطريق، لتصل بها في النهاية إلى وجهتها الأصلية، ألا وهي عمارة سكنية فارهة في وسط البلد، وتمضي دقائق على صعودها إليها هبطت بعدها بهيئة مختلفة تمامًا عن هيئتها الأصلية، ففائزة البسيطة الهادئة الملامح والطباع، المكافحة من أجل لقمة العيش، حين صعدت إلى ذاك المسكن

تحولت بفعلِ ما وُضِع على وجهها من مساحيق تجميل مكلفة وما ارتدته من ملابس كاشفة عن مفاتنها وانحناءات جسدها البارزة وكذا ما امتلكته من نَظَرات ساحرة وشعر أشقر منسدل على كتفيها- إلى امرأةٍ لعوبٍ يسيل لعاب أي ذكر تقع عيناه عليها.

وتبدأ بالسير وهي على تلك الهيئة في شوارع المدينة حتى استقرت قدماها في أحد الأماكن التي طالما اعتادت الوقوف فيها؛ انتظارًا للزبون الذي سيؤجر جسدها لليلة أو أكثر، في تجارة لم تعرف سواها منذ أن عصرتها دوامة الحياة لتُدخِلها إلى ذاك العالم الأسود، مدفوعةً بضغوطات نفقات علاج والدتها ومصاريف إخوتها الصغار.

•••

ويستمر انتظارها في مكانها ذاك لمدة قاربت نصف ساعة، إلى أن وقفت أمامها أخيرًا سيارة «BMW» حديثة الطراز يمتطيها شاب في منتصف العشرينيات، ليحدثها دون أن يهبط من سيارته:

- أنتِ، هل تسمحين لي بدقيقة؟

فتلتفت له بعد أن ارتسمت على وجهها ابتسامة فرحٍ بعثورها على صيدها الثمين الذي سيؤمن لها ولأهلها عدة أيام من الطعام والمال، قبل أن تميل إلى باب سيارته بميوعةٍ تتناسب مع مظهرها وتقول:

- تحت أمرك.

- ما اسمك؟

- قمر.

- حسنًا يا قمر، كم تتقاضين؟

- في الليلة أم الساعة؟

بثقة متناهية:

- أنا لا أحاسِب بالساعة، فلندع ذاك الأمر للصغار والمبتدئين.

- حسنًا، أنا أتقاضى في الليلة ست مئة جنيه.

- كثير، خمس مئة مناسبة جدًّا، ولا تنسي أنني سأصير عميلًا دائمًا لكِ.

فائزة، أو إن صح التعبير قمر، بغنج واضح:

- حسناً، موافقة.

وتدور بعدها حول سيارته كي تحجز مقعدها القابع بجواره، قبل أن تسأله:

- أخبرني إذاً، ما هو اسمك؟

بابتسامةٍ ملؤها الثقة والفرحة في أثناء استعداده للانطلاق بسيارته:

- يمكنك مناداتي بخليل.

وتتحرك بهما سيارته في تلك اللحظة نحو مسكنه المطل على مياه البحر الأبيض المتوسط، ليمارسا فيه الرذيلة طلباً للشهوة والإثارة.

•••

وتتكرر اللقاءات بينهما بشكل شبه يومي، إلى أن حلَّت ليلةٌ من لياليهما، ما إن انتهيا فيها من ممارسة البغاء حتى نهضت قمر عن سريره شبه عارية، متوجهةً صوب الشرفة المطلة على مياه البحر مباشرة، إذ طالما أحبت أن تقف فيها تراقب أمواج البحر المتسابقة نحو الشاطئ، فيما تداعب الرياح تفاصيل جسدها وتدفع شعرها فرحًا بوقوف صاحبته في ذاك المكان، في الوقت نفسه الذي توجه فيه خليل صوب المطبخ كعادته لإعداد كوكتيل الفواكه الاستوائية الذي طالما أحباه، ليناولها كوبها الذي انتهى لتوه من تحضيره ويقف بجوارها كي يتناول كأسه هو الآخر، قبل أن يحدثها قائلًا:

- أراكِ دائمًا تحبين الوقوف هنا.

قمر دون أن تلتفت له من شدة إعجابها بمنظر البحر:

- المنظر هنا ساحر، كيف لا أعجب به؟!

ليقف في تلك اللحظة خلفها محاولًا البحث عما هو ساحر في نظرها، قبل أن يحدثها دون اكتراث:

- لا أعرف عن أي سحر تتحدثين! فما أرى أمامي سوى بضع أمواج متلاطمة لا أكثر.

فتلتفت له في تلك اللحظة محدثة إياه بابتسامة هادئة بعد أن انتهت من تناول آخر رشفة من كوب عصيرها الذي أعادته إليه فارغًا:

- هذا لأنك تستيقظ كل صباح على هذا المشهد فلا تستطيع تقدير قيمته، شأني وشأنك في ذلك

شأن من ولد أعمى ومن عاش طوال حياته متمتعًا بنعمة البصر، فلا هذا يستطيع وصف آلامه لذاك ولا ذاك يستطيع الإحساس بأوجاع هذا.

ليضع خليل الكوبين اللذين بيده جانبًا بعدما أنهى مشروبه، كي يصفق لها مازحًا قبل أن يحدثها:

- براڤو! أرى أن كثرة وقوفك أمام أمواج البحر قد حولتك إلى فيلسوفة!

فتبادله الابتسامة الساخرة قبل أن تدير وجهها إلى أمواج البحر كي تستكمل حديثها معه بكل ثقة:

- بل هي الحياة يا عزيزي.

وتمر عدة لحظات عليهما، استهلكتها هي في متابعة

أمواج البحر المتلاطمة، قبل أن تدور بها الدنيا لتسقط من فورها مغشيًّا عليها، كي تفيق بعدها لتجد نفسها داخل غرفة يكسو البياض كل أركانها، ولا يوجد فيها سوى شاشة تلفاز معلقة على أحد جدرانها وصندوق أبيض مغلق بقفل إليكتروني، فتُصاب بحالة من الفزع لم تفق منها سوى على إضاءة شاشة التلفاز التي أطل منها خليل بكل هدوء وهو يقول:

- صباح الخير يا قمر الليالي، لقد أطلْتِ في نومك كثيرًا!

لتحدثه بغضب وانفعال شديدين:

- ما هذا المزاح الثقيل يا خليل؟!

•••

- أرجوكِ لا تتعصبي فلا داعي إلى الانفعال، ولكن بدايةً كنت أريد أن أسألك، هل تحبين أن أناديكِ بقمر كما عرَّفتِني بنفسك، أم أناديكِ باسمك الحقيقي، فائزة، التي تعمل ممرضةً في أحد المستشفيات كي تستطيع الإنفاق على أمها المريضة وإخوتها الصغار، أو هكذا جعلتِهم يظنون؟!

وينخرط بمجرد إنهائه جملته في موجة هستيرية من الضحك ملأت كل خلايا جسدها بالرعب والهلع خوفًا من المجهول الذي ستلاقيه في اللحظات القادمة، بخاصة بعدما تحولت إلى كتابٍ مفتوحٍ أمامه يداعب صفحاته كيفما شاء.

★★★

وصل محمود أخيرًا إلى منزله بعد دقائق طوال استغرقها في السير في ذاك الجو العاصف كي يحضر ما كُلِّف به، لتطل عليه عبير بمجرد فتحه الباب، وقد كانت ترتدي حجابًا تغطي به شعر رأسها الحريري الأسود اللون، الذي على الرغم من محاولتها لستره عن الأعين فإن بعض خصلاته كانت تأبى أن تظل حبيسة ذلك الحجاب، إذ خرجت معلنةً للجميع تتويجها ذلك الوجه الملائكي الممتلئ ذي العينين الواسعتين والفم الصغير، في لوحةٍ نادرًا ما تراها، اكتمل بهاؤها بامتلاك صاحبته جسدًا بارز الانحناءات غارقًا في صفات الأنوثة، الأمر الذي يجعل الناظر إليها لا يستطيع

أن يرفع عينيه عنها كي لا يحرمها من النظر إليها بشكل لا إرادي.

ويسلم عليها مبلغًا إياها بسلام مصطفى، قبل أن تغادره مغلقةً الباب خلفها وعلى وجهها ابتسامة كبيرة أضاءت وجهها، في حين توجَّه هو إلى الداخل للجلوس مع ابنه الوحيد.

وتمر على محمود الأيام وهو على تلك الحال، لتلح عليه الرغبة في الزواج كي يعف نفسه، شأنه في ذلك شأن الرجال جميعهم، وتكون أول من يفكر بالارتباط بها هي عبير، لأسباب عدة؛ أولها ارتباط حامد بها وحبه لها، وما شهده معها من أمانة وحسن معاملة طوال مدة عملها معه، وكذا

ما امتلكته من جمال ساحر نجحت به في سلب لُبِّه منه. ليقرر مخاطبة صديقه واستشارته حول رغبته تلك، إذ أبلغه برغبته في زيارته بمنزله، فيستقبله صديقه بكل ترحاب، ليجلسا معًا في الصالون قبل أن يسأله السؤال المعتاد:

- ماذا تحب أن تشرب؟

- أي شيء، فأنت تعلم أنا لست ضيفًا.

مصطفى بابتسامة خفيفة:

- حسنًا، سأعد لنفسي كوبًا من الشاي، هل أعد لك معي واحدًا؟

ليبادله محمود بابتسامة وإيماءة تعبيرًا عن استحسانه اقتراحه، سارع صديقه على إثرها بتحضير كوبي الشاي، الذين بمجرد إنهائهما تحدث مصطفى قائلًا:

- حسنًا، كنت قد طلبت مني أن نجلس معًا لمحادثتي في أمر مهم، كلي آذان صاغية.

محمود بحرج شديد:

- في الحقيقة، كنت أفكر في الارتباط وأريد أن آخذ رأيك في هذا الأمر.

مصطفى بسعادةٍ بالغة:

- مبارك لك يا صديقي! ومن تعيسة الحظ تلك؟!

محمود بعد أن احمر وجهه من شدة الخجل:

- هذا هو ما كنت أريد أن أحدثك فيه، فمن أريد أن أرتبط بها أنت أكثر من يعلم طباعها، ولذا كنت أريد نصيحتك.

حينها قال مصطفى بعد أن تبدلت ملامحه:

- لا أفهم، من تقصد؟

- العروس هي عبير، وكنت أريد أن أسألك عن رأيك في طلبي ذاك، وكذلك لتخبرني عما تعرفه عنها من طباع وما مرت به طوال حياتها وما إلى ذلك، فكما قلت لك، أنت أكثر من أعرفهم علماً بحياتها وطباعها.

- حسناً سأحدثك بكل صراحة، عبير شخصية لم أستطع فهمها في بعض الأحيان على المستوى

الشخصي، فهي طيبة جدًّا وخدومة بشكل كبير، ولكن على الرغم من ذلك فهي تمتلك شخصية قوية جدًّا، يصعب في كثير من الأحيان السيطرة عليها أو حتى التنبؤ بتصرفاتها، وربما يرجع ذلك إلى ما مرت به من ظروف صعبة ومعقدة طوال حياتها ساهمت في تكوين شخصيتها.

- هل يمكنك أن تخبرني ما هي تلك الظروف؟

عندها بدأ مصطفى بسرد ما يعرفه من صعاب لاحقت عبير منذ أن فتحت عينيها على الدنيا، تلك الصعاب التي آلمت صديقه عند سماعه إياها ولكن لسببٍ ما طمأنته. فعلى الرغم من صعوبتها، جعلته متأكدًا أنها ستكون سببًا مباشرًا في حسن

معاملتها، سواء له أو لابنه، لأن وببساطة فاقد الشيء دائمًا يعطيه ببذخ، لأنه أدرى الناس بمرارة فقدانه، فمن عانى مرارة الآلام لن يتسبب بالتأكيد في إيلام غيره في يومٍ من الأيام.

ليختتم مصطفى قوله متسائلًا:

- ها، بعد ما سمعت، هل ما زلت عند رأيك أم تغيرت قناعتك؟

- بكل تأكيد ما زلت عند رأيي، بل على العكس، إن ما قلته جعلني أحترمها وأتمسك بها بشكل أكبر.

- حسنًا، هل تحب أن تفاتحها في تلك المسألة أم أحدثها أنا؟

- أُفضِّل أن تفاتحَها أنت في هذا الطلب، فأنتما في النهاية أقارب وعلاقتكما تسمح لك بفعل تلك المهمة أفضل مني بكل تأكيد.

- لك ذلك.

وينهي محمود قوله قبل أن ينهض من جلسته استعدادًا لمغادرة منزل صديقه:

- سأتركك الآن لتحدثها هاتفيًّا في تلك المسألة، على أن ترد عليَّ غدًا عند استلامك ورديتك الليلية.

مصطفى مازحًا:

- غدًا! أليس متأخرًا قليلًا؟! يبدو أن عبيرَ عبيرٍ قد أثَّر على أحدهم حتى صار لا يستطيع الصبر بضع ساعات!

ليقهقه بعدها، في حين همَّ صديقه بمغادرة المنزل وعلى محياه ابتسامة ملؤها الفرحة الممزوجة بالخجل من قول مصطفى، الذي ما إن غادره حتى رفع سماعة الهاتف ليحدث عبير في الطلب الذي كُلِّف به، والذي لم تفاجأ به قط، فهي نظرًا إلى كونها امرأة، كانت على دراية تامة بمشاعره تجاهها، وهو ما جعلها تصر -بمجرد علمها أن تلك المشاعر قد ترجمت إلى طلب رسمي- على أن تجلس معه على انفراد للحديث معه في بعض الأمور. وعلى الرغم من أن محمود كان يرى أن الأمر بات محسومًا

بالنسبة إليه، إذ كانت من وجهة نظره هي المرأة المثالية التي من الممكن أن يكمل حياته معها، فقد رأى ضرورة تلبية رغبتها وطلبها، بخاصة أن ذلك هو أول طلب تطلبه منه بشكل شخصي، ليتفقا على الخروج معًا يوم إجازته من العمل على أن يتركا ابنه عند صديقه وقريبها مصطفى.

ويجلس الاثنان في أحد المقاهي المطلة على مياه البحر الأبيض المتوسط، ليبدآ في تناول مشروبهما، وتبدأ جبهة محمود تتفصَّد عرقًا من شدة الإحراج، إذ لا يدري من أين يبدأ الحديث، في حين كانت عبير جالسةً أمامه تراقب تصرفاته وتقرأ لغة جسده بكل هدوء، لترتسم على وجهها ابتسامة خفيفة

تمنح متلقيها حالةً من الطمأنينة، وذلك قبل أن تتطوع بفتح بوابة الحوار قائلة:

- هل لديك علم بأنني مطلقة؟

- أجل.

وتعم الجلسة لحظاتٌ من الصمت، قبل أن يستكمل محمود قوله ويُفرِغ كل ما في جعبته دفعة واحدة، كالصاروخ الذي لم ينقصه سوى منحه إشارة البدء للانطلاق بأقصى قوة إلى أعالي السماء:

- وأريدكِ أن تعلمي أن كونك مطلقةً لا يقلل من شأنك في شيء، فأنتِ في النهاية إنسانة لديها كامل الحق في العيش داخل أسرة من صنعها تحبها وتحترمها، وأحب أن أقول لك إن تلك المسألة لا

تعنيني على الإطلاق، بل يعنيني ما لمسته فيكِ من أدب وأخلاق وأمانة في خلال المدة الماضية.

- ولكن قبل أن تستقر على فكرة الارتباط بي، أريدك أن تعرف تفاصيل زواجي وأسباب انفصالي.

- ولكني لا أريد أن أعرف.

- لكني أريد أن أحكي، وأرجوك اسمح لي بذلك من دون أي مقاطعة.

- حسناً، كلي آذان صاغية.

لتصمت قليلًا قبل أن تتنهد استعدادًا لقول ما لديها:

- منذ أن ولدت وأنا في رحلة كبيرة من الألم والمعاناة، فبعد ميلادي بمدة قصيرة توفي والدي، لينجح عمي في السطو على حقي في الميراث، مدعياً أن والدي باع كل أملاكه له قبل مماته وأنه لا حقَّ لنا في أي شيء، فنشأتُ يتيمةً داخل منزل فقير، لا عائل لي ولا سند سوى أمي، ولك أن تخيل كيف نشأت طفلة من دون أب يكون سندها وعونها في تلك الحياة التي لم يقتصر ظلمها في حقها على ذلك الحد، بل جعلت سارقَ حقوقها ومن كاد يدمرها في مهدها هو عمها وأقرب الناس إليها. ولكن على الرغم من كل ذلك، تحاملت على نفسي واجتهدت حتى دخلت كلية الآداب قسم علم النفس، وهناك تعرَّفتُ إلى

رِزق، زميلي في القسم، الذي أحببته واعتبرته اسمًا على مسمى وأنه الرزق الذي عوضني الله به عما شهدته في حياتي من ألم ومعاناة ومرار، لنعيش معًا قصة حب استمرت أربعة أعوام، انتهت بزواجنا ودخولنا عش الزوجية القابع في منزل أهله...

في تلك اللحظة أشار لها محمود بالتوقف، فهو كان على علم مسبق بمجمل تلك القصة من صديقه، وكان يعلم أنه منذ تلك اللحظة سوف يتغير مسار الأحداث إلى الأسوأ، فأراد أن يوفر عليها ما سوف تعانيه في سردها لتلك الأحداث، إلا أنها قاطعته قائلة وعيناها تُرقرِقان الدمع:

- أرجوك دعني، لم أُنهِ حديثي، فالقصة لم تبدأ بعد، عندما قلت لك إن قصة حبي مع رزق انتهت بزواجنا، فأنا كنت أعني ذلك حرفيًّا، فبمجرد مرور ستة أشهر على زواجنا بدأت أم زوجي في التساؤل بشكل مستمر ومستفز عما إذا كانت هناك بشائر للحمل أم لا، في حين بدأت إخوته البنات، بالأخص اللواتي تجاوزن الثلاثين ولم يتزوجن بعد، في مضايقاتي، خصوصًا في غيابه، ولكني على الرغم من كل ذلك، ظللتُ صامدةً صامتةً عما أتعرض له من مضايقات قد تصل في بعض الأحيان إلى الإهانات، حفاظًا على زوجي وحياتي معه.

محمود مشفقًا على ما سوف ترويه في اللحظات القادمة:

•••

- أرجوكِ يكفي ذلك، لا أريد أن أعرف أكثر!

لكن عبير ردَّت بصوتٍ مبحوحٍ كي تكبح دموعها وآلامها:

- أرجوك دعني أكمل!

وتتوقف بعدها عن الحديث لبضع ثوانٍ كي تمسح عدة قطرات سقطت من عينيها رغمًا عنها من شدة انفعالها، قبل أن تُصدِر تنهيدةً طويلةً أكملت على إثرها حكايتها قائلة:

- حتى تلك اللحظة، كنت ما أمر به قد يعتبره عديد من الناس أمرًا مألوفًا يحدث في أغلب المنازل، وأنه من الطبيعي أن أصمت وأصمد إذا ما كنت أرغب في الاستمرار في حياتي الزوجية، وأقسم أن

هذا ما فعلته، إلا أن ما حدث بعد ذلك كان هو الطامة الكبرى التي لم يكن يمكن السكوت عنها أبدًا. فبعد مرور عامٍ من الزواج، ووسط إلحاح حماتي بالذهاب إلى أحد الأطباء للكشف عن سبب تأخر الحمل، اكتشفنا استحالة قدرتي على الحمل. لينزل ذلك الخبر عليَّ كالصاعقة، مدمرًا كل ما تبقى عندي من قدرة على الصبر والتحمُّل وكل أملٍ في أن أصير أُمًّا في يومٍ من الأيام. ويا ليت الأمر توقف عند ذلك الحد، فبمجرد علم والدة زوجي وإخوته بالخبر صرن يعاملنني بكل احتقار وإذلال، كما لو كنت خادمةً لديهم، وعندما أحاول الاعتراض على معاملتهم تلك، لا أجد منهن رد سوى نعتي بالأرض البور، وعندما

حاولت أن أشتكي إلى زوجي تلك المعاملة بعدما فاض بي الكيل، صُرِعتُ من رده، إذ قال لي إن هذه هي المعاملة الطبيعية التي تليق بي، فأنا لم أحقق رغبته في أن يكون أبًا، وبناءً عليه لا أستحق أن أعامل كزوجة، كما لو أنَّ ذلك الأمر بيدي! متناسيًا أن مسألة الإنجاب ما هي إلا رزق من الله عز وجل، الأمر الذي جعل الحياة بيننا مستحيلة، ليقع الانفصال بعد مضي قرابة عام من زواجنا.

وتنفجر منابع الدموع من عينيها بمجرد إتمامها قولها بلا توقف، وكيف لا وهي بذلك قد جمعت كل ما عانته من آلام وأوجاع قضتها في لحظة واحدة، لتخور قواها بشكل لا إرادي من أثرٍ ذلك،

وينهض محمود من مقعده كي يضمها إلى حِضنه قبل أن يقول:

- أرجوكِ يكفي ذلك! أنا أعرف كل ما قلتِه وما تريدين قوله، وأقول لكِ إني لن أخذلكِ أبدًا في حياتي وسأسعى بقدر ما أستطيع حتى أكون لكِ عونًا وسندًا في هذه الحياة حتى آخر الحياة. أرجوكِ اهدئي، أنا بجوارك فلا داعي إلى الحزن بعد الآن!

★★★

مرت اللحظات على فائزة كالأعوام وهي على تلك الحالة، لم تجد ما تفعله سوى تأمُّل ضحكات خليل الهستيرية، الذي قال بكل هدوء:

- بالطبع أنتِ تتساءلين: أين أنا؟ ومن ذاك المعتوه الذي يحبسني في هذا المكان العجيب؟ وماذا يريد مني؟! باختصار، أنتِ هنا من أجل تنفيذ العقاب الذي صدر في حقك، ولكن كي أكون عادلًا معك، فإن ذاك العقاب لن يكون مفروضًا عليك، بل سيتوقف تنفيذه على اختياراتك أنتِ، لا أحد آخر.

لتسود لحظات من الصمت بينهما، قبل أن يستكمل حديثه بالنبرة الهادئة نفسها:

- آه، نسيت أن أخبرك، إن هذه الغرفة التي تُحتَجَزين فيها هي غرفة معزولة بالكامل، مهما

صرختِ أو حاولتِ طلب النجدة فلن يسمعك سواي، لذا لا حلَّ أمامك سوى الخضوع لطلبي.

لم تجد قمر ما تقوله ردًّا على قول خليل سوى تساؤلها بنبرة ملؤها الرعب:

- لا أفهم عن أي عقاب وأي طلب تتحدث؟!

- باختصار، سأسألكِ سؤالًا واحدًا، إذا أجبتِني عليه بصدق فسيتم فتح باب الغرفة بشكل تلقائي وستجدي في انتظاركِ ملابسك وبجوارها رزمةً كبيرةً من المال تكفيكِ لعدة أشهر، تعويضًا عن تلك اللحظات الجنونية.

لتكفكف الدمع عن عينيها، قبل أن تسأله مدفوعةً بفضولها لمعرفة ذاك السؤال البالغ الأهمية وكذا

طمَعِها في حصد تلك الجائزة المالية التي ذكرها في حال نجاحها في الاختبار:

- حسنًا، ما هو ذلك السؤال؟

- هل أحببتِني يومًا أم كنتُ بالنسبة إليكِ مجرد زبون يشتهي جسدكِ؟

وتشعر في تلك اللحظة أن الأمر أتفه مما كانت تتصور، لترتسم ابتسامة الثقة على وجهها وتبدأ في إدارة الموقف بأهم وأقوى سلاحين تنجح الأنثى في استخدامهما في التلاعب طوال حياتها، ألا وهما ضعفها ودلالها، لتحدثه قائلة:

- لا أنكر أنك كنت بالنسبة إليَّ في البداية مجردَ زبون، شأنك في ذلك شأن جميع مَن عرفتهم

قبلك، ولكن منذ أن تقرَّبت منك، صرتُ غارقةً في التعلق بك بشكلٍ لم...

ليقاطعها جاسر بغضب:

- كاذبة!

فتنتفض فائزة من صرخته، قبل أن يستكمل حديثه بعدما اشتعل بركان الغضب بداخله:

- حقًّا إنك لم تتغيري قط! منذ أن عرفتكِ لم تتعلمي الدرس، دومًا ما عهدتكِ كذلك، مجرد عاهرة، تتاجرين بمشاعر من حولك وتتلذذين من داخلك بتقربهم منك ونهشهم جسدك مقابل ثمنٍ بخسٍ لا يفرق عن رخصكِ في شيء. لقد أحببتكِ منذ أول لحظة وقعت عيناي فيها عليك، حتى إنني

اعتبرتكِ في مكانة الأمِ والحبيبة، الملجأ والأمان، ولكني لم أكُنْ لكِ يومًا سوى مجرد وسيلة للتسلية ودرجة تطئينها بأقذر حذاءٍ لديك من أجل الوصول إلى مطامعكِ وطموحاتكِ التي لم تختلف عن قذارتكِ أو رخصك. وبالمناسبة، لقد كنتُ صادقًا معك حينما أخبرتكِ أنني سأُخْلي سبيلك في حالة إجابتك بصدقٍ عن سؤالي، ولكنك كعادتك، دائمًا ما تختارين اللعب برخصٍ على مشاعري كي تستعطفيني بغنجكِ ومعسولِ قولك.

لتسود بينهما لحظاتٌ طويلةٌ من الصمت بعد انتهائه، لم تقطعها سوى أصوات شهيقه وزفيره التي عبَّرتْ عن مدى انفعاله، وكذا النحيب المنبعث من بكاء فائزة على نفسها خوفًا مما ستلاقيه على

يده. حتى حسمها بنبرةٍ اختلط فيها الحزم بالهدوءِ القاتل:

- أنتِ كذبت، ومن المعروف أن الكاذب مصيره جهنم، أليس كذلك؟! ولكني لن أنتظر حساب الآخرة حتى تُحرَقي في الجحيم عقابًا على أفعالك، بل سأُحضِر لكِ الجحيم هنا وسأَدَعْ لك أيضًا حرية الاختيار، ولكن قبل إخبارك عن كيفية إحضار الجحيم إليك، دعينا نلقي نظرةً معًا على حسابك الشخصي على فيسبوك.

لتتحول في تلك اللحظة شاشةُ التلفاز التي يحدثها من خلالها إلى صفحةٍ عملاقةٍ تضم بين جنباتها تفاصيلَ

حسابها الشخصي على فيسبوك، حرك عليها خليل مؤشر الفأرة بينما يحدثها في خلفية المشهد:

- في أثناء نومك فتحت حسابك الشخصي وتصفحت محتوياته، قبل أن أنشر عليه هذا الفيديو، ما رأيكِ أن نشاهده معًا؟!

وفي الحقيقة، إن خليل لم ينتظر ردَّ فائزة على سؤاله، إذ ضغط مؤشر تشغيل الفيديو، ليبدأ الفيديو بعرض مشاهد لها وهي تمارس معه الرذيلة، مُظهِرًا إياها بوضوحٍ دون أن يظهر هو فيه، مما أصابها بصدمةٍ كسَتْ خلاياها كلها، قبل أن تدخل في حالة هستيرية من اللطم على خديها بكل قوة خوفًا من الفضيحة التي تسبب بها لها ولأهلها.

ليوقف الفيديو في تلك اللحظة معيدًا الشاشة إلى وضعها السابق ويظهر لها خليل وهو يتمالك نفسه بالكاد من شدة الضحك على فعلها، قبل أن يطمئنها بقوله:

- لا تقلقي، صحيح أن هذا الفيديو منشور على حسابك الشخصي ولكن لم يشاهده حتى اللحظة سوى أنا وأنت فقط، لأني ضبطت خصوصية النشر فيه على «أنا فقط».

وتتحول نبرة صوته إلى نبرةٍ حازمةٍ قبل أن يستكمل حديثه:

- والآن دعينا نتحدث عن العقاب الذي حدثتكِ عنه، في ذاك الصندوق القابع أمامك ستجدين

عبوةً تحوي كمية كبيرة من البنزين، وبجوارها قداحة جاهزة للاستعمال. عندما يُفتَح القفل عن الصندوق بشكل أوتوماتيكي سيُفَعَّل عدادٌ تنازليٌّ على الشاشة مدته ثماني عشرة دقيقة تقررين فيها مصيرك. فإما أن تمتنعي عن استخدام محتويات الصندوق، وفي تلك الحالة سيُنشَر الفيديو بخاصية الرؤية العامة، على صفحتكِ الشخصية وعلى صفحات معارفك وأقاربك كلهم، مرفقًا معه عنوانك واسم أمك وإخوتك وكذا خطوط سيرهم اليومية، لتتحول حياتهم إلى جحيم حرفي، وحينها سيُفتَح باب الغرفة وستجدين أمامها ملابسك، ولكن دون رزمة المال التي وعدتك بها في البداية، لتقابلي بذلك مصيرك وحياتك التي اخترتِها. إما

هذا وإما تسكبين محتويات الصندوق على جسدك وتشعلين النار فيه، وفي تلك الحالة سيُحذَف الفيديو إلى الأبد. خذي قرارك وتذكري أن أمامكِ ثماني عشرة دقيقة فقط كي تحسمي أمرك.

فيختفي خليل من الشاشة في تلك اللحظة، كي يحلَّ محله عداد رقمي ضخم بدأ في العمل بشكل عكسي بمجرد فتح الصندوق الذي حدثها عنه، في حين أدار هو وجهه عن الكاميرا التي كان يخاطبها عبرها كي يشاهدها عن كثب -عبر كاميرات المراقبة التي ثبَّتها قبلًا في الغرفة- وهي غارقة داخل صراعها النفسي الذي كانت تتجاذبها أمواجه كي يسحبها إلى رمال أحد الخيارين اللذين قُذِفَت بينهما، لتتحول بمجرد ملامستها شطَّ أحدهما إلى جحيم مستعر تنهشها نيرانه،

مما دفعها إلى إلقاء نفسها بين أمواج الحيرة التي غرقت فيها مرة أخرى علّها تكون منقذتها من تلك الآلام التي صارت تحيط بها من كل اتجاه، قبل أن تفيق على صوت صفارة قوية أعادتها إلى واقعها وغرفتها التي حُبِست فيها، لتجد نفسها غارقةً بين دموعها المنهمرة وعرقها الذي صار يتصبب من جسدها كالأنهار، وتكتشف مضي ثلاث دقائق كاملة من العداد التنازلي، قضتها داخل تلك الحالة، قبل أن يحدثها خليل بالنبرة الهادئة نفسها قائلًا:

- مرت الدقائق الثلاث الأولى من عمر العداد وعمر اختبارك، ويبدو أنكِ ما زلتِ في حيرةٍ من أمرك، حسنًا سأسهل عليك الأمر، أنتِ الآن كمن يقف فوق جسر بين جزيرتين، على أحدهما تقف

أمك بجوار إخوتك وكل معارفك، مهددين بالفضيحة والعار مدى الحياة، وكذلك أنتِ مهددةٌ بالمطاردة والنبذ منهم إلى ما بقي لك من أيام، إذا ما ظهر ذاك المقطع للنور، الذي أؤكد لك أنكِ في حال اخترتِ قرار التضحية بهم فإنه سيُنشَر في كل المواقع الإلكترونية التي تخيلينها، وحتى تلك التي لم تخطر على بالك قط. أما في الطرف الآخر من الجسر، فتقع أرضُ ملتهبةٌ إذا ما قررتِ إلقاء نفسك فيها فستحترقين بنارها، ولكن في المقابل ستنقذين أهلك وكل ذويك من مرارة العار التي كانت سترافقهم طوال حياتهم إذا ما نُشِر ذاك المقطع. أرأيتِ كم الأمر سهل ولا يستدعي كل تلك الحيرة

التي وقعتِ فيها؟! سأدعكِ الآن لتقرري مصيرك على أن أعود إليك بعد ثلاث دقائق أخرى.

ليتركها تغرق من جديد في محيط حيرتها، ولكن ليس لمدة طويلة هذه المرة، إذ سرعان ما حسمت أمرها بتحرُّكها بجسد أصابته الرعشة القاتلة رهبةً مما سيلاقيه في اللحظات القادمة، نحو الصندوق الذي حدثها عنه، كي تفرغ محتوياته عليها قبل أن تمسك بالقداحة لإشعال نارها بينما هي غارقة في بكائها ودموعها، فيتحول أنينها إلى صراخٍ كاد يشق عنان السماء، بعدما تسابقت نيران البنزين في التهام كل خلية حيةٍ من جسدها الذي انتفض مرارًا وتكرارًا في محاولات يائسة منه للتخلص من تلك النيران

التي التصقت به، قبل أن يخمد انتفاضُه إلى الأبد ويتكوم في النهاية معلناً وفاة صاحبته.

في حين ظل خليل يتابع تلك اللحظات بكل فرحة واستمتاع، وما إن تأكد من وفاة صاحبة الفيديو حتى حذف الفيديو من حسابها الشخصي، ثم دخل الغرفة ممسكًا بمطفأة حريق سرعان ما أفرغ محتوياتها في أركانها كلها، ليسحب جثتها كي يلقيها إلى مرقدها الأخير الذي يليق بها.

•••

الفصل الثالث

مضَتْ عدةُ أسابيعٍ على آخر لقاءٍ جمع بين محمود وعبير، في خلالها أُنهِيَت إجراءات الزواجِ كافة، لتستقر عبير بعدها داخل منزلهما كي تنشُر داخله عبيرها الخاص، عبير الرقة والحب والجمال، مُعِيدةً إلى أذهان القاطنين فيه أيامَ السعادة مرةً أخرى بعدما كادت أن تُنسَى إلى الأبد من ذاك المكان.

•••

ويستمر الوضع على تلك الحال لمدة عام كامل، كانت فيه هي الأم الصادقة لحامد والزوجة المخلصة لأبيه، ولكن لأن دوام الحال من المُحال، كان من الطبيعي أن يحل عليهم ما يعكر صفو حياتهم. ففي أحد الأيام وبينما كانت عبير تُعِد الطعام كعادتها، شعرت بآلامٍ شديدةٍ في منطقة الصدر وكذا ارتفاع في درجة الحرارة، تلاه مباشرة حالة خفيفة من الدوار. في البداية لم تضع ما حدث معها في الحسبان، ولذا سارعت في إكمال الطعام حتى يتناولوه معًا في ميعاد قدوم زوجها، لكنها ما كادت تنتهي من إعداده ويجلسا معًا لتناوله حتى أصيبت بحالة شديدة من القيء والغثيان، ما دفعَ زوجها دفعًا إلى الذهاب إلى الطبيب رغبةً في

الاطمئنان عليها، ليكتشفا أنها حامل في الأشهر الأولى وتتلقى الأسرة هذا الخبر، كلٌّ حسب موقعه.

أما عن الأب، فقد اعتبر هذا الحمل هديةً من المولى عز وجل ورزقًا لا بد من السعادة به، أما الابن فقد فرح فرحًا شديدًا بهذا الخبر لأنه أخيرًا سوف يكون له أخ أو أخت صغرى، في حين كان رد فعل الأم مختلفًا تمامًا، فبمجرد وقوع الخبر على مسامعها سادَ الوجومُ والحزنُ على ملامحها، إذ بدأت تستعيد ذكرياتِ طفولتها وما فعله عمُّها من سطو عليها واغتصاب حقها في ميراث أبيها وتركها لتقتاتَ على ما كانت تحصل عليه أمُّها من مال. وتبدأ بالتساؤل، ماذا لو أنَّ الجنين الذي ينمو داخل

أحشائها أنثى؟ كيف ستؤمِّن مستقبلها وتحميها مما تعرضت له هيَ من أذًى في حياتها؟ ماذا لو حاول أخوها غير الشقيق إيذاءها في المستقبل، ليحرمها من حقها مثلما فعل معها عمُّها في الماضي؟ ماذا لو...؟ ماذا لو...؟ وماذا لو...؟

لتبدأ الأفكار السوداوية في التغلغل داخلها بشكل تدريجي، ما انعكس بالسلب على معاملتها مع حامد، إذ صارت تعامله معاملةً يزداد سوؤها في كل يوم يمر عن سابقه، ويا ليت الأمر انتهى عند هذا الحد! فبمجرد تأكدها من نوع الجنين، استقرَّت على حلٍّ واحدٍ لا ثانيَ له لهذه المشكلة التي أوجدت جذورها وتفاصيلها كافة بداخلها، ألا وهو التخلص من حامد لضمان مستقبل أفضل

لابنتها، ما دفعها إلى تصعيد وتيرة معاملتها السيئة معه، فصارت تعتدي عليه بالضرب تارة وأخرى بالسباب وثالثة بالترهيب والإرهاب، لينمو حقدها وكراهيتها تجاه حامد كلما نمَت ابنتها داخل أحشائها.

أما عن محمود، فكان ما يُرتكَب في حق ابنه من اعتداءات يومية يحدث إما في غفلةٍ عنه حينًا أو تغافل منه أحيانًا، وهو ما دفعها إلى التجرؤ أكثر وأكثر لاتخاذ الخطوة التالية، ألا وهي المُجاهَرة بمشاعرها وأفكارها. ففي أحد الأيام وبينما كانت جالسةً في غرفتها صامتة، دخل عليها زوجها يحاول التماس شيءٍ من الراحة بعد يومٍ شاقٍّ في العمل،

ولكن يبدو أنها بخلت عليه بذلك الأمل، إذ حدثته قائلةً بكل صرامة:

- محمود، أريد محادثتك في موضوعٍ مهم.

محمود بنظرات غلبها النعاس:

- ألا يمكن تأجيل هذا الموضوع إلى غد؟ فإني مُتعَب جدًّا وأريد أن أرتاح قليلًا.

- لا، لا يمكن تأجيل هذا الموضوع لحظةً واحدة، فهو متعلقٌ بحامد.

عندها انتبه لها قائلًا باهتمام:

- خيرًا! ما هو هذا الموضوع؟

عبير بكل هدوء وأريحية:

- أنا أعلم أنَّ طلبي هذا سيكون صعبًا قليلًا، لكني بعد أن فكرت طويلًا وجدت أنه هو الحل الوحيد لمشكلتنا، لا بد أن نتخلص من حامد وألا يعيش معنا بعد اليوم.

فيقع قولها على محمود كالصاعقة، ليرد عليها مستفهمًا:

- عذرًا! يبدو أنني لم أسمعكِ جيدًا، أعيدي عليَّ ما قُلتِه ثانيةً.

- لا، أنت سمعتني جيدًا، ولكني سأعيد عليك كلامي مرةً أخرى، لا بد من التخلص من حامد كي نستطيع العيش معًا.

عندها صرخ محمود بانفعال:

- أتخلص من حامد! أتخلص من ابني! هل جننتِ؟! لمَ؟ ماذا حدث لكل ذلك؟

عبير بصوتٍ عالٍ هي الأخرى:

- أجل، نتخلص منه، فأنا ما عدت أطيق وجوده في المنزل؛ في كل لحظة أراه أستشعر منه شرًّا وخطرًا على مستقبل ابنتي، أرى فيه أهلي الذين استولوا على حقي وأنا صغيرة وتركوني للفقر والعناء يُذيقانني الويلات. وليكن في علمك، لن أسمح لأحدٍ مهما كان بأن يؤذي ابنتي أو يفكر في أن يُعرِّضها إلى الخطر.

محمود مذهولًا مما يسمعه من زوجته:

- ما هذا الهراء الذي تتحدثين به؟! هل أنتِ واعية لما تقولين؟!

عبير بعد أن تربَّعت علامات الصرامة والحقد على وجهها:

- كل الوعي بكل تأكيد.

- ومن قال لكِ إن حامد سوف يؤذي أخته؟!

- ومن قال لكَ أنني سأنتظر حتى يؤذيها أو حتى يفكر في ذلك؟! إن مجرد وجوده في حياتها خطر عليها.

- حتى لو افترضتُ صحةَ قولك، وهو بالتأكيد ضربٌ من الخبل، أين سوف أترك ابني؟

•••

- أهل أمه أحقُّ بتربيته مني، فإنَّ ما أمتلكه من طاقةٍ ومجهودٍ ملكٌ لابنتي القادمة، ابنتي وحسب دون غيرها.

- لكن ليس هذا ما اتفقنا عليه منذ البداية!

- ذلك الاتفاق كان في الماضي، عندما لم أكُن قادرةً على الإنجاب، أما الآن فالوضع قد تغير، مما يترتب عليه تغيير القواعد والاتفاق.

لينظر إليها في تلك اللحظة بيأسٍ امتزج بحزنٍ شديدٍ حاول التخلص منه بانصرافه من منزله سريعًا لاستنشاق الهواء النقي بعيدًا عن تلك الأجواء التي تلوثت بذاك النقاش، إلا أنها ما كانت لتسمح بضياع تلك الفرصة من بين يديها، إذ سرعان ما

أفرغت ما في جعبتها دفعةً واحدةً مكملة قولها بصوتٍ مرتفعٍ يضمنُ لها وصوله إلى قاطني المنزل كافة:

- وليكُن في علمك، إذا لم تتخلص من ذاك الطفل قبل ميلاد ابنتنا، فإننا سنختفي من حياتك إلى الأبد ولن ترانا ما حييت.

وتنهي جملتها في اللحظة نفسها التي سارع فيها محمود بمغادرة منزله حاملًا بين ضلوعه شحنةً ضخمةً من اليأس والغضب الممزوجين بالحزن وخيبة الأمل، التي سعى جاهدًا إلى تفريغها في الهواء الطلق، وذلك قبل أن تلمح عيناه حامد، الذي كان واقفًا

خلف باب غرفته يسمع كل ما دار بينهما وعيناه تفيضان دمعًا وحزنًا وخوفًا.

ويبدو أن ذلك الحديث لم يكن الأخير من نوعه، بل مجرد البداية لأشهر متواصلة من النكد والغم والضيق، كان بطلها الرئيس هو ذلك الطلب، أو إن صح القول ذاك الأمر، إذ كانت تتعمد عبير في خلال تلك الأشهر وفي كل مرة يتحدث محمود فيها أن ترفع صوتها كي تضمن وصوله إلى حامد، الذي بات يشعر بأنه غير مرغوب فيه داخل بيته، مما دفعه إلى التحدث مع أبيه مرارًا كلما رآه والدموع تنهال من عينيه:

- أرجوك يا أبي لا تتركني! أرجوك! لن أضايق أمي مرة أخرى، لا أريد أن أغادر المنزل، أريد أن أعيش معكما، أريد أن أعيش مع أختي، لن تسمع لي صوتًا ولن أضايقكما أبدًا، أرجوك لا تتركني!

لتنهال كلمات ابنه البسيطة عليه كالسياط تاركةً أثرًا داميًا على جسمه ونفسه، بخاصة في ظل رغبته الشديدة في الإمساك بأنصاف الحلول وإرضاء الأطراف جميعهم، وتحديدًا زوجته التي صار يعشقها إلى درجةٍ جعلته يخشى حقًّا أن تنفذ تهديدها في حالة تركه تلك المسألة دون حل، بخاصة بعدما أصبحت في الأشهر الأخيرة من الحمّل، وفي الوقت نفسه، لا يستطيع التخلي عن ابنه، فهو في النهاية ابنه. الأمر الذي دفعه في النهاية

إلى الهروب من المنزل وما فيه من ضغوطات، لاجئًا إلى ملاذه الأخير والوحيد الذي كان يشعر فيه بشيءٍ من الحرية والراحة وإن كانت مؤقتة، ألا وهو المقهى.

وبينما هو جالسٌ هناك غارقًا في أفكاره محاولًا إيجاد حل لمشاكله، إذا به يجد ذلك الحل واقفًا أمامه متمثِّلًا في شخصٍ من لحم ودم، كان ذلك الشخص هو سعيد، خال حامد والفرد الوحيد المتبقي من عائلة أمه، يبلغ من العمر أربعين عامًا، طويل البنيان، يملك شعراً أشقرَ ناعمًا كثيفًا وعينين بنيتي اللون وابتسامة دومًا ما تربَّعت على وجهه، يعمل في إحدى شركات النقل البحري، ولذا دائمًا ما يقضي أيامه بواقع ستة أشهر عملٍ في البحر

وثلاثة أشهر إجازة يستهلكها في رفقة زوجته إحسان، التي شاركته حياته زوجةً ورفيقةَ درب منذ قرابة عشر سنوات، لم يُرزَق بأي أطفال منها، ولكن على الرغم من حلم الأبوة الذي طالما راوده وتمناه، فإنه لم يفكر يومًا في الارتباط بغيرها لحبه الشديد لها.

جلس سعيد إلى طاولة محمود بمجرد أن رآه، وبدأ حديثه معه قائلًا:

- كيف حالك يا محمود؟

محمود محاولًا رسم الابتسامة على وجهه:

- الحمد لله على كل حال.

•••

- وكيف حال حامد وزوجتك الجديدة؟

- الحال لا تسر أحدًا أبدًا.

سعيد بعدما ارتسمت علامات القلق على وجهه:

- ما الأمر؟ هل حامد بخير؟

- في الحقيقة، لا أحد منا بخير.

- أرجوك تحدث ولا تقلقني أكثر من ذلك!

لينطلق محمود في شرح المشكلة التي صار يعيشها هو وكل أهل بيته بشكل شبه يومي، كمن كان ينتظر منحه إشارة البدء، في حين أنصتَ سعيد لكل حرف يقوله، حتى ختم محمود حديثه بقوله:

- والآن بات الجميع، وأولهم أنا وحامد، يعيش في جحيمٍ حقيقيٍّ وضغطٍ لا نستطيع الفكاك منه.

- وأنت يا محمود، ماذا سوف تفعل للخروج من ذلك الضغط وتلك المشكلة؟

- بالتأكيد لا توجد عندي إجابة، وإلا ما كنت حدثتك.

- هل يسمح لي صدرك الرحب بأن أقول لك رأيًا في هذا الأمر؟

- هاتِ ما عندك.

- بصراحة، إني أرى زوجتك، مع كامل احترامي لها، مُحدَثة نعمة، عاشت تجربة مريرة بسبب عدم

قدرتها على الإنجاب، وعندما رزقها الله جنيناً لم يولد بعد تجبَّرت وطَغَت، أما أنت فأراك سلبياً جدًّا في تلك المشكلة.

ويبدو أن كلام سعيد قد ضغط على الجرح الذي كان يعيشه محمود طوال الأيام الماضية، وهو ما دفعه إلى الإسراع برصِّ خطوطه الدفاعية كي لا يتمادى الأول في هجومه أكثر من ذلك، إذ حدثه قائلًا:

- أرجوك! لا داعي إلى ما تقول، وتذكر أنك تتحدث عني وعن أهل بيتي.

•••

- دعني أكمل حديثي أرجوك، وستجد عندي الحل بإذن الله، أنت تحب زوجتك وهذا ليس عيباً، ولكني أراك ضعيفًا وخانعًا أمامها.

عندها بادر محمود برد الهجوم بهجوم أشد ضراوة وإن كان مُبطَّنًا، إذ حدثه بصوت حانق قائلًا:

- أنت تقول هذا لأنك على البرِّ ولستَ في قلب المشكلة.

ليفهم سعيد ما يرمي إليه الأخير من عدم حصول الأول على أي مولود من صلبه حتى اللحظة، ولكنه تغاضى عن تلك الإساءة كي لا يتطور الأمر بينهما إلى مشاجرةٍ يكون الخاسر الوحيد فيها هو حامد،

ليقول بعد أن نجح في رسم ابتسامة مصطنعة أخفى بها حالة الغضب التي سيطرت عليه:

- حسناً، إن زوجتك تهددك بالاختفاء من حياتك هي وابنتها في حال وجود حامد في المنزل أكثر من ذلك، وأنا أقول لك إن أهلَ حامد أحقُّ به، وإنني أحق بتربيته من الأغراب الذين تخلَّوْا عنه، فهو في النهاية ابن أختي وأنا لم أنجب أبناء في حياتي، وسيكون لي بمثابة الابن الذي لم أنجبه قط. فما رأيك في هذا الحل؟

ليدير محمود وجهه عنه في تلك اللحظة كي يُسلِّط نظره إلى الأرض، بعدما كسته حالة من التضاؤل والدُّونية أمام سعيد، في ظل إحساسه بالعجز عن

حماية ابنه أو الحفاظ عليه كي يُرضي زوجته وغريزته، ولكنه في الوقت نفسه شعر بحالة من الرضا لوصوله إلى حلٍّ وسط يرضي جميع الأطراف، ما دفعه إلى الإجابة عليه دون تردد بقوله:

- موافق، متى تحب أن تأخذه؟

- في الوقت الذي تحدده، حسب قولك إن زوجتك الآن في الشهر التاسع، وهذا بالتأكيد يجعل كل يوم يمر ليس في صالحك.

- حسناً، يمكنك أن تأتي غدًا مساءً لأخذه.

- موافق، استأذنك الآن.

•••

ثم أشار سعيد للنادل كي يطلب منه حساب المشروبات، قبل أن يغادره بكل هدوء عائدًا إلى زوجته لإخبارها بما توصل إليه مع محمود.

***

قبل منتصف الليل بعدة دقائق، وقف جاسر أمام مرآته يرتدي ملابسه الأنيقة التي ما إن انتهى منها حتى امتطى سيارته «Land Rover» الحديثة الطراز، كي يلتهم بها الطريق ليصل إلى وجهته النهائية، ألا وهي أحد الملاهي الليلية التي اعتاد التردُّد عليها مؤخرًا، والتي دائمًا ما كان يرى فيها وفي أمثالها انعكاسًا ومرآةً صادقةً ونقية على الرغم من اتساخها لقذارة العالم الحقيقية، فالعاهرات

وفتيات الليل والراقصات فيه بأجسادهن العارية وزينتهن المبهرجة واللافتة للنظر، كُنَّ في نظره تجسيدًا لمن يتفنَّنون في النفاق والتلوُّن والتزين لإخفاء حقيقتهم وواقعهم، وكذا من يبيعون أرواحهم وأجسادهم وضمائرهم بأبخس الأثمان تحت أي مسمى. أما عن السكارى والمخمورين فقد كانوا أقرب ما يكونوا في تشبيههم ووصفهم بهؤلاء الذين سَكِروا من آلام وهموم الدنيا وأوجاعها. إلا أن الفرق بين الأصل داخل الحياة اليومية والانعكاس في الملاهي الليلية، أن الأول قد غرق داخل همومه ودماره حتى وصل إلى مرحلة فقدان الوعي لكل ما حوله، سواء مجتمعه أو حياته أو واقعه على الرغم من كمال عقله

وإدراكه، أما الثاني فقد أتى بملء إرادته طلباً لتذوق طعم السُّكْرِ كي يفقد وعيه وينسى آلامه علَّه يجد في ذلك راحته. وبين هذا وذاك تجد القوَّادين والسماسرة يتاجرون بآلام وآمال كل من حولهم، وهم في ذلك لا يختلفون عن أمثالهم في الحياة اليومية مع اختلاف المسميات.

وعلى الرغم من قذارة تلك الفئات التي ضُمَّت بين جدران ذاك المكان والتي كانت تفوح رائحتها منها من فرط نتانتها، فإن جاسر لسببٍ ما في نفسه لم يكن يشعر بالراحة النفسية إلا بينهم. ليجلس على طاولته المفضلة بمجرد دخوله إليه، التي ما إن تربَّع عليها حتى تقدم نحوه وليد، النادل في الملهى

والقواد في الوقت نفسه، ليرحب به قائلًا والابتسامة تعلو مُحيَّاه:

- جاسر باشا، كيف حالك؟ مشروبك المعتاد؟

- أجل، المشروب نفسه ولا تنسَ الثلج.

ليلتفت وليد بعد تسجيله طلب جاسر في الوقت نفسه الذي وقعت عينا الأخير على واحدة من الفتيات اللواتي كنَّ يتراقصن على خشبة المسرح ويستعرضن أجسادهن ويعرضنها لمن يدفع أكثر، التي على الرغم من كونها مثل بقية الفتيات، ترتدي ملابس تكشف أكثر مما تستر، فإن ما ميزها عنهنَّ في نظره هو امتلاكها جسدًا بارزَ الانحناءات تمايل تفاصيله مع إيقاع موسيقى المسرح بكل

مهارة، كما تتمايل أغصان الأشجار المزدهرة في موسم الربيع بفعل الرياح. في حين ينساب شعرها الحريري الأسود كسواد الليل على كتفيها وظهرها مع حركتها كانسياب المياه المنهمرة من الشلال لتروي عطش الظمأى.

لينادي وليد في آخر لحظة قبل أن يغادره، فيلتفت إليه الأخير قائلًا:

- تحت أمرك يا جاسر باشا.

- من تلك الفتاة؟ لأول مرة أراها هنا.

- من تقصد؟

فيشير بإصبعه تجاهها مع وصفها له لسهولة العثور عليها، قبل أن يجيبه الأخير بمجرد تأكده من طلب عميله بينما ترتسم على وجهه ابتسامة ذات مغزى:

- إنها جميلة، فتاة جديدة تعمل هنا منذ أسبوع، تحت أمرك.

ويفهم جاسر معنى تلك الابتسامة التي ضمَّت في فحواها عرض البضاعة على المشتري، ليبادله بأخرى قائلًا قبل إخراجه من جيبه بضعة نقود وضَعَها في يد وليد عربونًا للصفقة:

- حسنًا، إن أمكن فلتدْعُها إلى الجلوس معي الليلة فيما أتناول كأسي.

- تحت أمرك يا باشا.

ليمر على عتبة المسرح مشيرًا إليها بإشارة مفهومة بين الطرفين، نزلت على إثرها لتتوجه إلى طاولة جاسر، في حين ذهب هو لتحضير مشروب جاسر المفضل وغيره من بقية الزبائن.

وتسود حالة من الصمت بينهما بمجرد جلوسها أمامه، استمرت إلى عدة لحظات استهلكها جاسر في تأمل ملامح وجهها الطفولية، التي يستحيل أن يظن أحد أنها تنتمي إلى مثل هذا العالم القذر، إذ تزينها عينان واسعتان وفم صغير زاداها جمالًا فوق جمالها. لتقطع هي ذاك الصمت بابتسامة مرحة وتقول:

- إذًا حدثني، ما هو اسمك؟

- جاسر، وأنتِ؟

- جميلة.

- وهل جميلة هو اسمك الحقيقي؟

بعد تردد طال للحظات:

- في الحقيقة لا، ولكن هل يفرق معك اسمي الحقيقي؟!

جاسر مبتسمًا:

- لا، ولكن تستطيعين القول إني كنت أحاول الحديث معك في أي موضوع إلى حين قدوم مشروبي الذي وصل بالفعل.

ويشير بيده إلى وليد الذي كان خلفها ومعه أحد العاملين في الملهى حاملًا مشروبَ جاسر، الذي بمجرد أن وضعه له على طاولته سأله قائلًا:

- هل تأمرني بأي شيءٍ آخر؟

- اسأل جميلة ماذا تحب أن تشرب.

فيلتفت وليد إليها، لتجيبه بكلمات مقتضبة مدربة عليها جيدًا:

- زجاجة شمبانيا فاخرة لو سمحت.

- حسنًا، أتمنى لكما قضاء ليلة سعيدة.

ليغادرهما وعلى وجهه ابتسامة تنمُّ عن رضاه وسعادته بطلب تلميذته النجيبة، الذي يصب في مصلحة المكان في النهاية.

وتمر لحظاتٌ معدودةٌ من الصمت بينهما قطعها جاسر بسؤاله بكل هدوء:

- حدثيني إذًا، كم من المال تأخذين في الليلة الواحدة؟

- لماذا؟

- أبدًا، إذا أحببتِ فيمكننا أن نكمل سهرتنا في الشاليه الخاص بي بعد أن تأتي لنا زجاجة الشمبانيا التي طلبتِها كما درَّبكِ القائمون على المكان هنا، وبعد

انتهاء سهرتنا بإمكانك العودة مرة أخرى متى شئتِ.

- موافقة، وكم ستدفع في المقابل؟

- أنتِ من تحددين.

لتشير بأصابع يدها الخمس أمام وجهه، فيخاطبها مازحًا:

- ماذا؟ خمسة؟!

جميلة بعصبية مصطنعة:

- بل خمس مئة.

- موافق.

- هكذا؟! دون أي فصال؟!

- ولِمَ الفصال، أنتِ حددتِ السعر وأنا أراه مناسباً.

ويصل النادل إليهما حاملًا زجاجة الشمبانيا التي طلبتها والتي سرعان ما أخذاها لينتقلا صوب الشاليه، الذي طالما شهد مع صاحبه قضاء مثل تلك الليالي، والذي ضم بين ضلوعه ثلاث غرف إحداها مغلقة بإحكام، وصالة استقبال احتوت على بار لتحضير المشروبات والخمور، وصالون خُصِّص لاستقبال الضيوف، الذي ما إن اخترقوا بابه حتى توجهت جميلة إليه للجلوس على أحد كراسيه واضعةً إحدى قدميها على الأخرى

وبجوارها زجاجة الشمبانيا في انتظار جاسر، الذي سرعان ما توجه إلى البار لتحضير مشروب الاستقبال الذي طالما قدمه لكل من زاره في هذا المكان، بخاصة إذا كان الزائر امرأة.

فيتقدم إليها بعد بضع دقائق حاملًا في إحدى يديه مشروبها الخاص وفي الأخرى كأسين فارغتين للشمبانيا ويضعهما على الطاولة المقابلة لها، قبل أن يجلس أمامها واضعًا إحدى قدميه على الأخرى هو الآخر. لتسأله متعجبة:

- ما هذا؟!

- يمكنك أن تدعيه مشروب الترحيب بالأصدقاء، أقدمه لكل من يزورني هنا، بخاصة إذا كان الزائر مثلك من جميلات النساء.

جميلة بابتسامة رقيقة:

- شكرًا على المجاملة، ولكن لِمَ لَمْ تحضر لنفسك كأسًا منه؟

- الحقيقة، إني قد تجرعت منه كثيرًا حتى زهدته على الرغم من عشقي الشديد له، بالإضافة إلى أني سأكتفي بالشمبانيا فحسب، إذ ليس من طبعي الإكثار من الشُّرب، أما أنتِ فضيفتي ولا بد من إكرامك.

لتمسك بمشروبها والابتسامة تعلو محياها:

- حسنًا، لنشرب إذًا هذا المشروب العجيب.

الذي ما إن أنهته حتى أكملت حديثها قائلة:

- حدثني إذًا، لماذا اخترتني لقضاء هذه الليلة معك دونًا عن بقية الفتيات في المكان؟

- تستطيعين قول إنك تشبهين إلى حدٍّ كبيرٍ شخصًا له مكانة كبيرة في قلبي، إلى درجة أنني عندما رأيتكِ في الملهى شعرت بأنها هي من كانت أمامي.

- ولكن ما دامت لها هذه المكانة كلها في قلبك، لماذا لم تصل إليها أو تتواصل معها؟

- لأسباب خاصة، ولكني متأكد من أنه سيأتي اليوم الذي أعبر لها عن مكانتها عندي وأستمتع معها كيفما أشاء وكما تستحق.

جميلة بصوتٍ ونظراتٍ تفيض دلالًا وغنجًا:

- إذًا سأكون اليوم بديلًا عن فتاتك تلك، لتستمع بي ومعي كيفما تشاء.

جاسر بابتسامة يتقطر منها الخبث كما تتساقط قطرات القطران من براميل النفط:

- كلي ثقة بذلك.

لتسود لحظات من الصمت بينهما لم يقطعها سوى إحساس جميلة بسريان حالة من الخدر داخل

جسدها، صاحبتها رغبة شديدة في النعاس، حدثته على إثرها متسائلة:

- لماذا أشعر بدوار ورغبة شديدة في النوم؟!

بكل هدوء بعد انتهائه من تناول إحدى رشفات كأس الشمبانيا خاصته:

- ذلك بسبب المخدر.

جميلة بعدما تحولت نظرات عينيها وتعابير وجهها من الدلال إلى الرعب والفزع:

- مخدر! ماذا تقصد؟! مَن أنتَ وماذا تريد مني؟

جاسر بعد أن ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة لا تتناسب مع فزع مُحدِّثته:

- عذرًا، نسيت أن أخبرك، لقد أضفت إلى مشروبكِ بضع قطراتٍ من مخدر شديدِ الفعالية، وهو الآن يجري في جسمك مجرى الدم، وما تعانيه من رغبة في النعاس ما هي إلا بداية لأعراض ستُختَتَم في خلال دقيقة على الأكثر بفقدانك كامل وعيك.

لتخاطبه في الوقت نفسه الذي حاولت فيه يائسةً النهوض من مكانها والهرب بعيدًا عن ذاك المنزل، بعد أن كسا الفزع كل ذرة من قلبها وغزا كل جزءٍ من وجهها:

- أريد أن أنهض، أريد أن أغادر، دعني أرحل أرجوك، لا أريدك، لا أريد مالَك!

جاسر مقهقهًا:

- لا تحاولي المقاومة، فإن ما تفعلينه الآن يُسرِّع من مفعول التخدير لا أكثر، فمصيرك قد كتبتِه بالدم منذ اليوم الذي قررتِ فيه تدمير حياةَ من لا ذنب لهم.

لتسقط من فورها سقطةً مدويةً معلنةً عن فقدانها وعيها، في الوقت نفسه الذي نهض فيه جاسر عن مقعده أخيرًا ليسحبها إلى الغرفة المغلقة، التي ما إن أدخلها فيها حتى أغلق بابها خلفَه، لتبدأ منذ تلك اللحظة متعته الحقيقية.



مضت عدة دقائق على نهوض سعيد من جلسته مع محمود، استهلكها الأول في التفكير في كيفية تمهيد ما توصل إليه من قرار إلى زوجته قبل إحضار حامد معه في اليوم التالي، ويصل أخيرًا إلى منزله الذي سرعان ما فتح بوابته الخارجية ليخرج شادو (كلب من سلالة «جيرمان شيبرد» أحضره خصيصًا لتسلية زوجته في أثناء غيابه وكذا حراسة المنزل) من مسكنه لاستقبال صاحبه، الذي لحقت به زوجته لترحب به بحرارة شديدة بابتسامتها الهادئة التي طالما عهدها، فيضمها بين ضلوعه قبل أن يمرر يديه على شعر رأسها الحريري الأسود كسواد الليل، الذي بالكاد يصل إلى كتفيها، في الوقت ذاته الذي كان يتأمل فيه

ملامح وجهها الوديعة وعينيها العسليتي اللون في لحظاتٍ كستها حالة من الرومانسية لم يقطعها سوى حديثها المازح:

- ما رأيك لو نوفر هذه الرومانسية إلى ما بعد العشاء؟ فالجو هنا قارص، وكذلك لا أريد أن يحسدنا أحدُ الجيران على هذه اللحظات التي نقتنصها في غفلة من دوامة الزمن.

ليبادلها سعيد الابتسامة قبل أن يؤمِّن على حديثها قائلًا:

- حسنًا، كما تشائين، أخبريني إذًا، ماذا أعددتِ على العشاء؟

- وجبتك المفضلة، الطبق الرئيس بيض بالبسطرمة يحيطه كوكبة من أصناف الأجبان المختلفة.

فيدخل الاثنان إلى منزله الذي ورثه عن أهله بمجرد أن انتهت مما تقول، والذي كان مكونًا من طابقين يغطيان مساحة كبيرة تطل على حديقة خاصة بالمنزل تضم بين جنباتها أنواعًا مختلفةً من الأشجار والزهور، وكذا مسكن شادو الذي جاوره قبوٌ اعتادا أن يلقيا فيه ما لا يحتاجانه من أغراض.

وينهي الاثنان وجبتهما، ليحدثها سعيد قائلًا:

- إحسان، كنت أريد أن أحدثكِ في أمرٍ ما.

- منذ أن بدأت تناول الطعام لاحظتُ أن ذهنك مشغولٌ في أمرٍ ما، خيرًا إن شاء الله؟

- خيرٌ إن شاء الله، اليوم قابلت محمود الذي كان متزوجًا في السابق دلال أختي رحمها الله، وحدثني في أمر مهم يخص حامد ابن أختي.

- ما هو؟

ليبدأ في سرد ما رواه له محمود وما توصَّلا إليه من قرار في الوقت نفسه الذي كانت هي مُنصِتة لكل ما قاله، قبل أن ينهي حديثه بتساؤله:

- حسنًا، ما رأيك؟

- رأيي في ماذا؟!

- في ما قلت بالتأكيد.

- هذا ابن أختك وهذا منزلك وبالتأكيد من حقه علينا استقباله، ولكن...

- لكن ماذا؟

- سأحدثك بصراحة، لماذا يعيش معنا؟! فنحن سعداء معًا ولا حاجة لنا في استقبال أحدٍ للعيش معنا.

سعيد بنظرات ملؤها الرجاء:

- يا إحسان، إن حامد ليس فقط ابن أختي الوحيدة، بل هو الوحيد المتبقي لي من عائلتي وقد تخلى عنه أهله غير مدركين ما رزقهم الله...

ليلجم لسانه في تلك اللحظة سريعًا كي لا يخرج منه ما خشي أن يؤذي زوجته ويجرح مشاعرها، ويسارع بتغيير مسار قوله:

- أرجوكِ يا إحسان، إذا كان لدي في قلبك ذرة حب واحدة وترغبين في رؤيتي سعيدًا، فلتوافقي على استقبال حامد هنا وأحسني معاملته.

ولكن ما أبَى لسانُه أن ينطقه فضحته عيناه لديها، إذ دائمًا ما كانت تفهم مشاعره دون أن ينطق بها من شدة تعلقها به وحبها له. لذا رأت في نظراته ما كان في قوته وشدته أبلغَ من آلاف الكلمات التي طالما سعى جاهدًا أن يَئِدَها كي لا يجرحها في يومٍ من الأيام، وهو ما جعلها تردُّ عليه قائلةً بعدما

أدركت ما وراء رغبته في استقدام حامد للإقامة معهما:

- موافقة، أحضره غدًا كما اتفقت مع والده، فأنت تعلم أن كل ما أتمناه في الحياة أن أراكَ سعيدًا.

وتسقط من عينيها دمعة سعت إلى كبح جماحها، إلا أنها أبت إلا أن تخرج إلى النور، سارع زوجها على إثرها إلى ضمِّها مرةً أخرى بين ضلوعه وتقبيل رأسها، قبل أن يحدثها قائلًا:

- بارك الله لي فيكِ يا أغلى ما أملك.

وتنقضي بذلك ليلتهما استعدادًا لاستقبال حامد، في الوقت نفسه الذي تحرك فيه والده من المقهى الذي كان هاربًا إليه من منزله، والذي ما إن عاد

إليه مرةً أخرى حتى استقبلته عبير بالصراخ المعتاد تمهيدًا لجرعتها الليلية من تكرار طلبها الرئيس، الذي ما كادت أن تبدأ فيها حتى أسكتها زوجها قائلًا:

- اطمئني، سوف تتحقق أمنيتك غدًا.

لم تصدق عبير ما سمعت من شدة فرحها وهو ما دفعها إلى سؤاله:

- ماذا قلت؟! أعِدْ عليَّ ما قلت ثانية!

- لقد سمعتِني جيدًا، قابلتُ خالَ حامد اليوم واتفقت معه على أن يأخذه إلى منزله غدًا.

عبير وهي تكاد تطير من شدة السعادة:

- حقًّا، أنت أعظم زوج في الدنيا، إني أحبك بشدة!

وما كادت تذهب إليه لتحضنه وتقبله تعبيرًا منها عن سعادتها حتى صدها قائلًا:

- أرجوكِ دعيني اليوم، فإنني أريد أن أرتاح.

ليتركها متجهًا صوب غرفته طلبًا للراحة، في الوقت نفسه الذي حدث فيه نفسه قائلًا:

- قد أكون أعظم زوج وعاشقٍ في الدنيا، ولكني بالتأكيد أسوأ وأحقر أَبٍ في الكون!

أما عن حامد، فقد كان في تلك اللحظات مستلقيًا على سريره متخذًا وضعية الجنين، لا يفعل شيئًا

سوى النحيب والبكاء في صمتٍ شديدٍ بعدما أدرك أن عدم بقائه داخل منزله قد حُسِم، وأن مغادرته صارت مسألة وقت لا أكثر، وأن أباه قد تخلى عنه بعدما تركته أمه وماتت قبله.

ليحل مساء اليوم التالي ويقف سعيد على عتبة باب شقة محمود يراقب كلًّا من عبير وزوجها، اللذان التصق كلٌّ منهما بجوار الآخر في صالة الاستقبال في انتظار حضور حامد. فيقرأ بعينيه تعابير وجهيهما ومشاعرهما التي كسَتْ جسديهما، والتي تباينت نظرًا إلى النتيجة التي وصلا إليها، مُشكِّلَةً مزيجًا غريبًا اختلطت في أجوائه الفرحة بالانكسار والهزيمة بالانتصار والفخر بالعار. ويطل عليهم حامد وهم على تلك الحال من غرفته بعدما

انتهى من ارتداء ملابسه، ليتقدم نحو خاله كما تتقدم الدمى نحو مالكها بوجهٍ خالٍ من أي شكل من أشكال التعبيرات، اللهم إلاّ من احمرار عينيه الشديد نظراً إلى بكائه في خلال الأيام الماضية بشكل هستيري متناسياً وجود أي شخص حوله، مُسلماً نفسه إلى مالكه الجديد، بعدما تخلى أهله عنه وتخلصوا منه بشكل نهائي كما يتخلص الشخص من القاذورات في صندوق القمامة.

ليغادر سعيد مصطحباً معه ابن أخته، دون أي وداع بين الأهل، متجهًا به صوب مقر إقامته الجديد، ألا وهو منزل أسرة والدته، الذي ما كادا يصلان إليه حتى وقف حامد قليلًا أمام السور الذي يتقدمه كمن يخشى اقتحام المجهول خوفًا من

أن يجد بداخله ما هو أسوأ بمراحل مما عاناه حتى اللحظة، ولكن عندما رفع بصره نحو خاله وجد نظرات مُطمئِنة منه ساعدته على أن يخطو أولى خطواته إليه، مخترقًا عتبته سائرًا بين ضفاف حديقته التي أوصلته في النهاية إلى صالة استقبال المنزل، الذي رأى فيه ولأول مرة في حياته زوجة خاله إحسان، التي أطلت عليه بطول قامتها وعينيها الحادتين وابتسامتها الهادئة وهي واضعة إحدى قدميها على الأخرى، في الوقت ذاته الذي كانت تمسك إحدى يديها بلجام شادو فيما تداعب الأخرى شعر رأسه، إذ كان جالسًا أمامها في وضعية أقرب في وصفها بجلسة أسدَيْ قصر النيل، ليكشر عن أنيابه بمجرد وقوع عينيه عليه استعدادًا

للفتك به دفاعًا عن سيدته، لكنه توقف فور رؤيته سيده القادم خلف حامد وتراجع عن رغبته الوليدة في اللحظة الأخيرة. ويوجه سعيد حديثه إلى زوجته قائلًا:

- إحسان، كيف حالك؟ أراكِ تستمعين بقضاء وقتك مع شادو. صحيح، لقد نسيت أن أعرف كلًّا منكما على الآخر، هذا هو حامد ابن أختي الذي سيعيش معنا في الأيام القادمة بإذن الله، كما أخبرتك. حامد هذه هي زوجتي.

عندها مدَّ حامد يده لمصافحتها على استحياء، لتسلم عليه والابتسامة مرتسمة على وجهها:

- أهلًا بك يا حامد، يمكنك مناداتي ماما إحسان، اتفقنا؟

فتهلَّل أسارير حامد في تلك اللحظة لفرط سعادته مما سمعه، متسائلًا بينه وبين نفسه، هل أخيرًا سوف يعيش بين أم وأب حقيقيين يحبانه ويسعدانه؟! ليجد نفسه من دون وعي وفي أقل من ثوانٍ يجيبها بعد أن احتلت الابتسامة والفرحة تقاسيم وجهه كلها:

- اتفقنا يا... ماما إحسان.

وتلتفت إحسان تجاه زوجها لتحدثه قائلة ولم تفارق الابتسامة وجهها بعد:

- وبالتأكيد أنتما جائعان ولم تتناولا شيئًا منذ الصباح، ريثما أُعِدُّ الغذاء فلتأخذ حامد في جولة داخل المنزل وتُريه غرفته التي سيقيم فيها معنا، وكذا تُغيِّران ملابسكما.

ليومئ لها سعيد برأسه تعبيرًا منه عن موافقته على اقتراحها، قبل أن يأخذ حامد من يده كي يبدأ معه جولته داخل المنزل، التي انتهت بدخول الأخير إلى غرفته الواقعة في الطابق العلوي، التي كان شأنها شأن الغرف جميعها في ذلك الطابق، تُطِل على حديقة المنزل، فوضع حقائبه فيها وغيَّر ملابسه، ثم نزل مع خاله إلى الطابق السفلي حيث وجدا إحسان في انتظارهما، ليتخذ كلٌّ منهم

مقعده حول طاولة السفرة ويبدؤوا في تناول أولى وجباتهم معًا.

وينقضي على تلك الحال شهر ونصف قضاه حامد في سعادة غامرة وسْط عائلته الجديدة.

***

في ذلك الوقت، كان الوضع عند محمود ينذر بكارثة، فبعد تعافي عبير من آلام النِّفاس واستعادتها كامل صحتها، بدأت في تنفيذ المرحلة الثانية من خطتها، بعدما وضعت أدقَّ تفاصيلها في خلال مدة ما بعد الولادة.

فبمجرد عودة محمود من عمله وانتهائه من تناول طعامه حدثته قائلة:

•••

- حبيبي، كنت أريد أن أحدثك في مسألة مهمة.

محمود في تعجب:

- أمر مهم! ألا يمكن أن يُؤجَّل هذا الأمر إلى غد لأني مرهق جدًّا اليوم؟

- في الحقيقة لا، لقد حاولت تأجيل الأمر كثيرًا، ولكني أرى أن الآن هو أفضل ميعاد له.

- حسنًا، هاتِ ما عندك.

- أنت تعلم أن حامد قد انتقل الآن للعيش مع خاله.

محمود بصوت منخفض محدثًا نفسه:

- تقصدين طردناه ليعيش مع خاله.

عبير متجاهلة ما صدر عن زوجها لتكمل قولها:

- هو الآن يعيش مع خاله وزوجة خاله، يتمتع برعايتهما من ناحية وبإرث أمه من ناحية أخرى، لذا لدي طلب أرجو أن تنفذه.

في تلك اللحظة، وجَّه محمود حواسه جميعها تجاه زوجته، إذ أيقن أن ما سوف تتفوه به من حروف مقبلة لن يكون إلا عبارة عن اقتراح كارثي، إما بحق حامد وإما بحقه وإما بحق كليهما. وبالفعل يبدو أن ظنه لم يخب، فما نطقت به لم يقِل حقًّا عن مستوى الكارثة، على الأقل في حق حامد، إذ

حدثته قائلة وعلامات الهدوء والبراءة ترتسم على وجهها:

- طلبي أنه ما دام حامد لم يعد في حاجةٍ إلى إنفاقك عليه، وصار يملك ما يكفيه من مال من ناحية وهناك آخران صارا يتكفلان به من ناحية أخرى، فلم لا تُسجِّل ما تملك من أموال وأملاك باسم ابنتنا الحبيبة؟

كاد محمود أن ينفجر في وجه عبير من هول الصدمة، إذ لم يتخيل قط أن تصل وقاحتها إلى هذا المستوى، متناسياً أنها ما كانت لتصل إلى تلك الوقاحة لولا تخاذُلَه أمامها وتخلِّيه عن ابنه في

البداية، ليحدثها بصوتٍ أقربَ في وصفه إلى الصراخ:

- ماذا؟! ما الذي تقولينه؟! هل تريدين أن ترثني ابنتي في حياتي؟! أما يكفيكِ ما أوقعتِه من ظلم في حق حامد وطردك إياه من منزله وحرمانه من أبيه؟! الآن تخططين لحرمانه من أموالي أيضًا!

عبير بكل هدوء:

- أرجوك اهدأ يا حبيبي، الأمر لا يحتاج إلى كل ذلك الانفعال، فكر معي بعقلانية من دون عواطف، حامد الآن يعيش في كنف خاله وسط أملاكه وأملاك خاله، فما حاجته في مالك؟! في حين أن ابنتك الوليدة أحق بذلك المال منه الآن،

فلِمَ لا تكتبه باسمها منذ الآن وتؤمِّن مستقبلها؟ أنا لم أطلب منك شيئًا لي، بل طلبي لابنتنا الحبيبة. ثم قف لحظة، من قال إنني حرمتك من ابنك؟! أنت يمكنك الذهاب لرؤيته متى أردت، كل ما في الأمر أنني لم أعد أطيق رؤيته أو العيش معه.

لم يستطع محمود تحمل مزيدٍ من حديث عبير الطائش، لذا سارع بالنهوض من جلسته محدثًا إياها دون الالتفات لها:

- يكفي! حامد ابني ونور ابنتي ولن أحرم أحدهما من مالي في حياتي أو حتى بعد مماتي، وسواء أنهيتِ حديثك أم لم تنهيه، فاعتبري المناقشة قد انتهت، أما أنا فسأغادر الآن هذا المنزل طلبًا للهواء

النظيف والراحة النفسية بعدما صار طلبها داخله دربًا من المستحيل.

إلا أنه ما كاد يصل إلى باب المنزل حتى نهضت هي الأخرى من مقعدها لتستكمل حديثها معه، ولكن بعد أن تحول هدوؤها وصوتها الملائكي إلى فحيح أقرب إلى فحيح الأفعى فيما ترتسم ابتسامة صفراء على وجهها:

- كما تشاء يا عزيزي، اذهب الآن، ولكن أريدك أن تفكر في حديثي وطلبي ذلك جيدًا، لأني الآن كما تعلم حاضنة لنور ابنتنا، وبحكم القانون يحق لي الاحتفاظ بالشقة كي أتمكن من تربية ابنتنا بها،

وبحكم القانون أيضًا يمكنني التوجه إلى المحكمة وخلعك في أي لحظة أريد.

عندها وقف محمود مصدومًا مما تقوله زوجته، فلم يعد يدري بماذا يرد عليها. لكنها لم تنتظر رده، إذ استكملت حديثها قائلةً وعلامات الهدوء والابتسامة الصفراء تعلو ملامح وجهها:

- اذهب الآن يا عزيزي فأنت بحاجة إلى استنشاق الهواء الطلق والتفكير في عرضي وطلبي الذي عرضته عليك من جوانبه كافة، وأنا على يقين بأنك ستصل إلى القرار الصائب في النهاية.

ليجد يديه تفتحان باب المنزل بشكل تلقائي رغبةً منه في مغادرة ذاك المكان واستنشاق هواءٍ نظيفٍ

لم يستطِع أن يحصده بين جدرانه، في حين تشتعل داخل قلبه وعقله عاصفةٌ من العواطف والمشاعر المختلطة ما بين الصدمة والذهول والحزن والغضب واليأس.

وتبدأ قدماه تقودانه في شوارع المدينة فيما ظلَّ ذهنه شاردًا، ليس في ما قالته له زوجته فحسب، بل وفي التحول الذي أصابها منذ أن علمت أنها حامل في نور ابنتهما. ليفيق في النهاية بعدما حطت قدماه رحالها دون وعيٍ منه أمام المقهى الذي طالما وجد راحته النفسية فيه، والذي ما إن وقع بصره عليه حتى سحب أحد المقاعد الفارغة ليجلس عليه، قبل أن يبدأ في التفكير على مهل محدثًا نفسه قائلًا:

- كيف كنتُ مغفلًا إلى هذه الدرجة؟! أإلى هذه الدرجة كنت أعمى ولا أستطيع تمييز حقيقة الشخص الذي أمامي؟! لقد أدخلتُ منزلي حرباءَ متلونة، لا بل أفعى ناعمة وجعلتها تنام في حضني، والآن ها أنا أشتكي من لدغاتها! في الأمس القريب نجَحَتْ في جعلي أتخلى عن ابني فقط لإرضائها، واليوم حان دوري في الالتهام، فبعد أن وضعت ابنتها وضعتني بين شقي الرحى، ليصير عليَّ الاختيار بين خيارين أحلاهما مر، إما أن أتنازل عن جميع ما أملك لصالح ابنتي الوليدة وأصبح أسيرًا لها هي وأمها مدى الحياة، التي ما عاد بإمكاني ائتمانُها على جناح بعوضة وليس على كل أموالي، وإما أن تخلعني هي وتحصد الشقة لأنها حاضنة لابنتها بحُكم

القانون. في الأمس القريب وفي المكان نفسه وجدت سعيد واقفًا أمامي لينقذني من الورطة التي وضعتني فيها سابقًا، ولكن الآن من سينقذني؟! وكيف سأحل مشكلتي؟!

ليتوقف عندها عن التفكير لعدة دقائق في محاولة يائسة منه لتصفية ذهنه وإيجاد حل لمشكلته التي وُضِع فيها، والتي ما كادت تنتهي حتى عاد ذهنه إلى الاشتعال مرة أخرى، ليحدثه قائلًا:

- أتدري يا محمود، يبدو أن سعيد كان مُحقًّا في النهاية، فمنذ أن دخلت عبير منزلك ونشرت فيه عبيرها الخاص وأنت لا تستطيع العيش من دونها، لا تستطيع قضاء يوم واحد فقط دون رؤيتها،

أصبحتَ تعشقها حد الجنون، الأمر الذي جعلك ضعيفًا أمامها فلا تستطيع أن ترفض لها طلبًا حتى لو كان ذلك الطلب سيؤدي إلى طرد ابنك من منزله وحرمانه من العيش مع أبيه وأخته. باختصار يا صديقي، أنت تعلم حق العلم أنها أفعى ناعمة ملعونة تسللت إلى منزلك مرتديةً قناع البراءة والطيبة، ولكنك في الوقت نفسه تدرك تمام الإدراك أنك أضعف من أن تواجهها أو ترفض لها طلبًا أيًّا كان لعشقك الشديد لها. فأَرِحْ نفسك، لأنك مهما فعلت ومهما حاولت ومهما أنهكت نفسك في التفكير لإيجاد حل فأنت في النهاية ستعود إليها خاضعًا خانعًا موافقًا على أي أمرٍ تأمرك به.

ويبدأ إعصار المشاعر الذي كان مشتعلًا بداخله في الاندثار تدريجيًّا تاركًا خلفه حالة شعورية واحدة سيطرت على جوارحه كلها، ألا وهي اليأس والاستسلام للأمر الواقع والخضوع لطلب زوجته، وهو ما دفعه في النهاية إلى النهوض عن مقعده متثاقلًا كالكهل في خريف العمر كي يتوجه صوب أقرب محامٍ له ليكتب عنده تنازلًا رسميًّا عن أملاكه كلها لصالح ابنته الوليدة نور، الذي بمقتضاه حرم ابنه حامد من أي حق مادي له عنده. ليعود أدراجه بعدها إلى منزله الذي وجد فيه عبير جالسة في صالة الاستقبال مسلطة نظرها عليه بنظرة جمعت بين طياتها كلًّا من اللهفة والقلق، فيتقدم نحوها بخطواتٍ ثابتة، قبل أن يقف أمامها تمهيدًا لمحادثتها قائلًا:

- مبارك عليك، فقد حققت أمنيتكِ وطلبكِ للتو.

ويخرج من جيبه بمجرد إنهائه قوله بطاقةً ويلقيها أمامها ليستكمل حديثه بعدها:

- وهذه هي البطاقة الخاصة بالمحامي الذي كتبت عنده عقد التنازل، ويمكنك التواصل معه غدًا لاستكمال بقية الإجراءات في حال عدم قدرتي على استكمالها معه.

لتنهض عبير في تلك اللحظة من جلستها بعدما تحولت نظرات اللهفة والقلق لديها إلى سعادة غامرة طغت على ذرات جسمها، لشعورها بنجاحها أخيرًا في تنفيذ مخططها وتأمينها مستقبل ابنتها الوحيدة، وهو ما دفعها إلى قول:

- حقًّا! إنني أعشقك، أنت زوجي الحبيب.

وتبدأ بعدها في إغراقه بسيل من الأحضان والتقبيل مكافأةً له على فعلته تلك، إلا أنها في خضم ذلك شعرت بأن من تقبله وتحتضنه ليس زوجها العاشق الذي عهدته، وإنما تحول إلى ما يشبه الصنم، لا يملك بداخله أي إحساس أو مشاعر، عندها فقط أدركت أخيرًا ولو قليلًا كيف تحامل على نفسه كي يخطو تلك الخطوة فقط من أجل إرضائها، وهو ما جعلها تتراجع خطوتين إلى الخلف لتلتف حوله كما تلتف الأناكوندا حول فريستها قبل التهامها، فتقول بكل نعومة:

- حبيبي، أنا أدرك أنني بطلبي ذلك قد ضغطت عليك كثيرًا، ولكني لا أريدك أن تحزن، فذلك المال هو في النهاية ملكك وسيظل لك فيه حرية التصرف، كل ما في الأمر أنه قد انتقلت ملكيته على الورق إلى ابنتك.

عندها هزَّ محمود رأسه في يأس مؤيدًا كلامها بينما توقفت هي أخيرًا عن الالتفاف حوله لتقف في مواجهته مستكملة قولها بنظرات تفيض غزلًا ودلالًا:

- ثم لا تنسي يا حبيبي، إنني فوق ذلك سأعيش تحت قدميك العمر كله ولن يكون لي هم ولا أمل سوى إسعادك.

ليبتسم محمود ابتسامة خفيفة تنم عن تفهمه للأمر الواقع الذي بات فيه، قبل أن يقول لها:

- أعلم أعلم، ولكن أرجوكِ دعيني أستريح قليلًا اليوم، فأنا منهك وبحاجة إلى كثير من الراحة.

- بالتأكيد يا حبيبي، اذهب الآن ولن يقلقك أحد اليوم.

- حسنًا، سأذهب الآن وغدًا أريدك أن توقظيني باكرًا كي أتمكن من الذهاب إلى المحامي لتوثيق التنازل.

ويغادرها بمجرد إنهائه جملته متجهًا صوب غرفته رغبة منه في الاستلقاء على السرير، الذي ما إن ألقى جسده عليه حتى بدأت براكين الحزن وتأنيب

الضمير والذكريات المؤلمة بالتفجُّر في ذهنه وقلبه، لتكسوها دون سابق إنذار بحمها المنصهرة التي دفعته دفعًا إلى البكاء ومحادثة نفسه:

- اعذريني يا دلال، فقد خنت وصيتكِ بعد مماتك وتخليت عن حامد وحرمته من حقوقه، اعذريني فقد كنت أضعف من أن أتحمل مسؤوليته وخنتك وخنت ابننا الذي لم يشق طريقه في الحياة بعد.

ويظل بعدها غارقًا عدة دقائق كاملة في حالة هستيرية من البكاء، حاول في خلالها قدر استطاعته ألا يصدر أي صوت مرتفع كي لا يلفت انتباه زوجته، متذكرًا ابنه الذي ظل في خلال مدة حملها يبكي بالطريقة نفسها خشية أن

تلتفت إليه فتُذيقه من العذاب الويلات تلو الويلات. لتستسلم عيناه للنعاس في النهاية حين خارت قواه بعدما يئس من حصد ولو شطرٍ ضئيلٍ من الراحة والطمأنينة التي فشل في الحصول عليها في خلال يومه الطويل. في الوقت نفسه الذي كادت عبير ترقص من فرط سعادتها لإتمام خطتها، التي بواسطتها نجحت في تأمين مستقبل ابنتها بشكل نهائي وكامل.

وتمر ساعات الليل سريعًا، لتشرق شمس الصباح التي ما إن كست السماء بضيائها حتى سارعت عبير في إيقاظ زوجها كما طلب منها لتوثيق عقد التنازل، إلا أنها وبعد محاولات متكررة لم تتلقَّ منه أي إجابة، وهو ما دفعها إلى التعجب في

بادئ الأمر ثم زيادة وتيرة تحريكها لجسده، بخاصة بعدما بدأ القلق يتسرب إلى قلبها، لتَهُمَّ بمحادثته قائلة:

- محمود، محمود، استيقظ أرجوك، اليوم موعدنا لتوثيق العقد، هيا كفاك مزاحًا! استيقظ الآن.

ولكن على الرغم من كل محاولاتها المستميتة في إيقاظه، فهو للمرة الأولى لم ينصع لأوامرها ويفق من سباته العميق، ذلك لأن جسده في تلك اللحظة قد صار أزرقَ اللون باردًا متيبسَ الأطراف خاليًا من أي نبضٍ أو روح.

الفصل الرابع

كان وقع الصدمة على عبير شديدًا، فلم تكن تتوقع أن يُتَوَفَّى زوجها بهذه السرعة، متناسية أنه لا يوجد مخلوق قادر على الهروب من الموت، وأنه سيدرك الجميع في النهاية أينما كانوا وإن اختلفت الأزمنة والمواقيت. لتمر عدة دقائق ظلت فيها جالسةً بجوار جثة زوجها، بينما يترنَّح عقلها بين أمواج عاتية من المشاعر المتضاربة كادت أن تغرقه، فهنا يتلقفها

الحزن ليلقيها إلى الغضب ثم يقذفها بكل عنف وقوة إلى الندم الممزوج بشيء بسيط من الفرح، ولكنها ما كانت لتسمح لنفسها بأن تظل حبيسة تلك الحال لمدة أطول من ذلك، وهو ما دفعها إلى الاتجاه بأقصى ما تملك من قوة نحو هاتف منزلها على الرغم من أنها في تلك اللحظات كانت بالكاد قادرة على تحريك جسمها من هول الموقف الذي وقعت فيه، وتتصل بمنزل سعيد الذي رد عليها على الفور لتحدثه قائلة:

- ألو... الأستاذ... سعيد معي؟

- أجل، من معي؟

- معك عبير زوجة... محمود.

ولكنها ما كادت تذكر اسم زوجها حتى انفجرت باكية، عندها تملك الخوف والقلق من قلب سعيد، الأمر الذي دفعه إلى سؤالها بكل انفعال:

- ما الأمر؟ هل محمود بخير؟

مرت ثوانٍ عدة لم تستطع فيها أن تنطق حرفًا من شدة بكائها، إلا أنها في النهاية وبعد معاناة تمكنت أن تحدثه:

- محـ...ـمود مـــــــــــــــات!

لتغلق سماعة الهاتف بعد إتمامها جملتها وتدخل في حالة هستيرية من البكاء لم تستطع السيطرة عليها بمجرد إبلاغه بمصابها. في الوقت نفسه الذي وقعت جملتها على مسامعه كوقع الرصاص القاتل، ليصاب

على إثرها بصدمة لا تقل بشاعة عن التي أصيبت هي بها، وإن اختلفت أسبابه عنها، إذ كان جُل تفكيره منصبًّا على شيءٍ واحدٍ لا ثاني له، ألا وهو كيف سيجرؤ على إبلاغ حامد الذي لم يبلغ بعد السادسة من عمره بأنه صار الآن يتيمَ الأب والأم.

ويظل سعيد حبيس تلك الصدمة التي لم يفق منها إلا على صوت زوجته التي انتقلت إليها عدوى القلق بعدما شاهدته على حالته تلك، إذ كان وجهه أصفر اللون كما لو قد رأى شبحًا، أما هو فما إن وقع بصره عليها حتى طلب منها الجلوس وقال:

- إحسان، أرجوكِ اجلسي أمامي، فأنا بحاجة إلى مشورتك.

إحسان بعد أن استحوذ الخوف على خلاياها كلها:

- ما الأمر؟! منذ أن أطللت عليك وأنا أشعر بوجود كارثة ألَمَّت بنا، أرجوك تحدث ولا تزِدْ من رعبي أكثر من ذلك.

- سأدخل في التفاصيل مباشرة فالأمر لا يحتمل أي مقدمات، باختصار تلقيت اتصالًا من زوجة محمود والد حامد تخبرني فيه بأن زوجها قد توفي صباح اليوم، والآن لا أعرف كيف سأخبر حامد بأنه الآن بات من دون أهل ولا سند في هذا العالم.

عندها أصيبت إحسان بحالة من الذهول، ولكنها وجدت أن الأفضل هو تجاوز تلك الحالة والتفكير في كيفية حل تلك المعضلة، لتحدثه سريعًا:

- وحِّد الله يا حبيبي، فأنت رجل مؤمن تعلم جيدًا أن الموت حق علينا جميعًا.

- لا إله إلا الله.

- اسمعني جيدًا يا عزيزي، سواء شئت أم أبيت، لا بد أن يعرف حامد ذلك الخبر، فالمُتوفَّى ليس شخصًا عاديًّا بالنسبة إليه، بل هو والده، حتى وإن كان هو من طرده من منزله منذ قرابة شهر ونصف، كذلك لا يستطيع أحد في الدنيا أن يتولى مهمة إخباره بذلك الخبر سواك، ليس لأنك خاله

الذي صار يعيش في كنفه فحسب، ولكن لأنك أيضًا آخر من تبقى من عائلته على قيد الحياة.

- كل ما قلتِه أعرفه حق المعرفة، مشكلتي الآن تكمن في كيفية إخباره.

- أفضل الطرق لإيصال نقطتين هو الطريق المستقيم.

- ولكن في بعض الأحيان الطريق المستقيم يكون مليئًا بالآلام والأحزان.

- لكنه في النهاية يظل أفضل الطرق على الإطلاق.

عندها صمت سعيد معبرًا عن اقتناعه بحديث زوجته، التي أكملت حديثها:

- فكر مع نفسك حتى يستيقظ في كيفية إخباره بذلك الخبر، سأتركك الآن، كان الله في عونك.

وتمر الدقائق طوال على الزوجين، حتى استيقظ حامد من نومه ثم أنهى فطوره، عندها اتفق سعيد مع زوجته على استدعائه إلى غرفة سعيد، ليدخل عليه والسعادة تحتل كل ذرة من قلبه قبل أن ترتسم على وجهه كعادته منذ أن استقر في ذلك المنزل، بعد أن كانت قد هجرته شهورًا قضاها في منزل والده، الأمر الذي زاد من صعوبة مهمة

سعيد أكثر مما هي عليه، ولكنه قرر المضي قدمًا في تنفيذها رغمًا عن أي شيء، فبدأ الحديث:

- كيف حالك يا حبيبي؟

- الحمد لله، بخير حال.

أجابه باسمًا كعادته، ولكنه لسبب مجهول بالنسبة إليه شعر أن خاله ليس على ما يرام، ولذا من دون تردد سأله:

- ما الأمر يا خالي؟ هل هناك ما يحزنك؟

سكت سعيد عدة لحظات محاولًا تجميع أفكاره، ولكنها دائمًا ما كانت تنتهي بالتشتت أمام نظرات حامد البريئة التي كانت تقتله من داخله، ليقرر

بعد معاناة إلقاء الخبر كالقنبلة في وجهه، في محاولة منه للتخلص من ذاك الحمل الثقيل الذي ظل جاثمًا على صدره منذ الصباح، فقال له:

- الحقيقة يا بني، لقد علمت اليوم أن والدك قد سافر ولن يعود لمدة طويلة.

حامد بعد أن ارتسمت على وجهه علامات الاستفهام:

- سافر! سافر إلى أين؟!

- إلى أمك دلال.

- إلى أمي؟! أتقصد أنه قد سافر إلى ربنا؟! أفهم من كلامك أنني لن أراه هو أيضًا مرة أخرى؟!

قال تلك الكلمات بينما كانت عيناهما تترقرقان من الدمع، ولكن ما قاله بعد ذلك مستفهمًا ببراءة طبعه كان أصعب من أن يتحمله خاله، إذ سأله مستفهمًا والدموع تكاد تسقط من عينيه:

- ولكن يا خال عندي سؤال.

- ما هو يا حبيبي؟

- لماذا أرى حولي دائمًا مَن هم في سني معهم آباؤهم وأمهاتهم، أما أنا فقد سافر والدايَ إلى ربنا وتركاني هنا وحيدًا، هل هم يكرهانني إلى هذه الدرجة؟!

في تلك اللحظة لم يستطع سعيد الصمود أكثر، وهو ما دفعه إلى ضمه بين ضلوعه بينما تنسال الدموع من عينيه، قبل أن يحدثه قائلًا:

- لا تقُلْ ذلك يا حبيبي فلا أحد يكرهك، ثم إنك لست وحيدًا، فأنت ابني ونحن عائلتك وأهلك، وسأظل سندك ما حييت، فلا أريدك أن تفكر للحظة بأنك وحيد ما دمتُ أنا على سطح الأرض.

عندها صمت الاثنان تاركان دموعهما تنهمر منهما بلا توقف، في حين كانت إحسان تستمع إلى الحوار كاملًا وتذرف دموعها هي الأخرى، كلٌّ منهم لأسبابه الخاصة.

وتمر ساعات ثقال بعد تلك اللحظة، بدأت بعدها أخيرًا سحابة الصدمة الممزوجة بالحزن والتي كست عقل سعيد بالمرور من فوق رأسه تاركة لذهنه متنفسًا يسمح له بالتفكير والبقاء على قيد الحياة، وهو ما دفعه إلى الإسراع بمعاونة أقارب محمود في إنهاء إجراءات دفنه وجنازته إكرامًا له ولابنه حامد. ولكنه ما كاد يرتاح من ذلك المجهود الجبار ويفيق من تلك الحالة، حتى فاجأته عبير بالاتصال على منزله وطلبت منه الحضور إلى منزلها لأمر عاجل، راجيةً إياه بضرورة إحضار زوجته وكذا حامد معه.

كانت نبرتها في الحديث تتسم بكثير من القلق إلى درجةٍ أصابته بعدواه، الأمر الذي دفعه إلى بذل

عديد من المحاولات المستميتة لمعرفة ما وراء ذلك القلق الذي انتابها والتمسه في صوتها، وكذا إصرارها على حضور حامد وزوجته، إلا أن محاولاته كلها باءت بالفشل، مما اضطره في النهاية إلى الرضوخ لها والاتفاق معها على مقابلتها في منزل محمود في تمام الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه.

وبالفعل تجهز الثلاثة للذهاب إليها قبل الموعد المحدد، ليغرق كل واحد من الثلاثة -وهُمْ في طريقهم إلى وجهتهم- في محيط أفكاره الخاصة. إذ ظل سعيد تتقاذفه أمواج القلق والشك وسوء الظن، بخاصة في ظل ما شهده وعرفه عن تلك المرأة. في حين انطلق حامد سابحًا بين شواطئ ذكرياته المتعلقة بذلك المنزل، الذي كان ذات يوم

منزله، وتلك المرأة التي كانت ذات يوم بمثابة أمه، ذكريات رآها كما لو كانت فيلمًا سينمائيًّا معكوسًا، بدأت أولى مشاهده بوقوفه داخل منزله منتظرًا قدوم خاله لتنفيذ الحكم الذي صدر في حقه بالنفي والطرد منه، بحضور كلٍّ من أبيه الراحل وزوجته. لينتقل بعدها إلى لحظات تعذيبه وإهانته على يد عبير في أثناء حملها لأخته التي لم يرها قط حتى اللحظة، ويصل أخيرًا إلى مشاهد الختام التي رأى فيها نفسه جالسًا مع أبيه الراحل وزوجة أبيه وهم في قمة سعادتهم. ليظل الفتى بذلك عالقًا داخل بحار أفكاره التي ظلت تتقاذفه بين شواطئها المختلفة التي شهد في خلالها أشكالًا متنوعةً من المشاعر،

امتزجت فيها السعادة بالحزن والآلام بالخوف والغضب بالفرح والظلام بالنور.

أما إحسان، فكان كل خوفها منصب حول شيءٍ واحدٍ فقط، ألا وهو احتمالية أن تقول عبير لها أي كلمة تجرحها بخصوص الإنجاب، حتى وإن كانت عن دون قصد، نظراً إلى أنها لم تحظَ حتى تلك اللحظة بأي ابن من صلبها، على عكس عبير التي رُزِقت بنور.

ويفيق في النهاية ثلاثتهم من حالتهم تلك بمجرد وصولهم إلى باب المنزل في تمام السادسة، الذي ما إن طرقوه حتى استقبلتهم عبير في حالةٍ وجوٍّ كان الصمت فيهما هو سيد الموقف. فيتسللوا إلى

داخل الشقة كي يجلسوا في الصالون، قبل أن تقتل عبير ذاك الصمت بسؤالها:

- ماذا تحبون أن تشربوا؟

سعيد:

- أرجوكِ لا داعي إلى تلك الشكليات فنحن لسنا ضيوفًا، من الأفضل أن نتطرق إلى الموضوع مباشرة من دون أي مقدمات.

لتنظر عبير إلى الأرض وتشبك أصابعها في محاولة منها للهروب من توترها وقلقها الذي نجحت في اصطناعه بشكل متقن، كي تبدأ حديثها قائلة:

- في الحقيقة، إنني لا أعرف من أين أبدأ، أمس أتى إليَّ شخص، هو محامٍ، قال لي إن زوجي ذهب إليه قبل ليلة واحدة من وفاته لكتابة وتسجيل وثيقةٍ تنازَلَ بمقتضاها عن كل ما يملك.

صُعِق الجميع مما قالته عبير، ليصيح كلٌّ من سعيد وزوجته في صوت واحد متعجبين:

- ماذا؟!

وذلك قبل أن يسألها قائلًا:

- وألَمْ يخبركِ ذلك المحامي لمن تنازل المرحوم عن أملاكه تحديدًا؟

في تلك اللحظة، أشاحت عبير بوجهها بعيدًا عنهما لترد قائلة:

- هنا تكمن المشكلة، لقد فوجئت بأن زوجي قد تنازل عن كل أملاكه لابنتي نور، وهذه صورة من الوثيقة التي استلمتها أمس.

لتسلمهما نسخةً من تلك الوثيقة التي أخرجتها من جيبها بمجرد إنهائها جملتها، فلم يجدا ما يقولانه أو يفعلانه سوى التقاطها منها وتبادل نظرات التعجب في أثناء الاطلاع عليها، وما إن أتمَّا قراءتها حتى أدار سعيد وجهه تجاه عبير ليسألها:

- وأنتِ، ماذا تنوين أن تفعلي؟ هل ستوافقين على ذلك وتقرين به، أم ستعيدين الحق إلى أصحابه؟

•••

- لا أعرف ماذا أفعل حقًّا! لكني بالتأكيد لا أستطيع مخالفة رغبة زوجي، خصوصًا بعدما صرت المسؤولة عن تنفيذها بعد مماته.

لتقع كلمات عبير على مسامعه كوقع الصاعقة في قلب غابة كثيفة في موسم الخريف، حارقة، مدمرة، يصعب السيطرة على رد فعلها. فيرد عليها قائلًا وعيناه تفيضان بنظرة ملؤها الحزم والغضب الممزوجين بابتسامة خفيفة توحي بالسخرية:

- طبيعي، فهذا ليس بغريب عنك.

عبير بتعجب اختلط بحالة من الغضب والاستهجان المبطن:

- ماذا تقصد؟!

سعيد بعد أن أخذ شهيقًا عميقًا تبعه زفير طويل تمهيدًا لإفراغ ما في جعبته وما حمله في قلبه تجاهها طوال المدة الماضية:

- أقصد أن المرأة التي تعتدي جسديًّا ونفسيًّا على فتى لم يكمل السادسة من عمره، وتُحوِّل حياته إلى جحيم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى طوال مدة حملها، وتظل تُلح على زوجها صباحًا ومساءً في خلال تلك المدة بضرورة طرد ابنه وإلقائه في الشارع، فقط لإرضائها بكل شراسة وقوة وصلت إلى حد تهديده باختفائها من حياته وحرمانه من رؤية ابنته -التي كانت في علم الغيب وقتها- في حالة عدم انصياعه لها؛ ليس بمستبعد عنها أبدًا أن

تكون قد ألحت عليه بالشدة والوتيرة نفسيهما لتجبره على التنازل عن أملاكه لصالح ابنتها وصالحها.

عبير بكل عصبية وانفعال:

- أرجوك، لا أسمح لك، وتذكر أنك هنا ضيفٌ في منزلي!

- لا تسمحين لي بماذا؟! بقول الحقيقة وكشفك على حقيقتك، أم بعدم مسايرتك في قصتك السخيفة؟!

حتى تلك اللحظة لم يكن حامد مهتمًا بالحوار الذي يدور بين خاله وزوجة أبيه الراحل، إذ كان مشغولًا بأفكاره وألعابه الخاصة، إلا أن الردود الأخيرة التي قالها لفتت انتباهه إلى الدرجة التي

جعلت كل كلمة منها تهوي على مسامعه وتقطع من قلبه وروحه شطراً، لتحيله في النهاية إلى أشلاء متناثرة وهباء منثوراً، وكيف لا وقد عايش كل حرف منها. لتصدر على إثرها من عينيه عدة دمعات حاول جاهدًا السيطرة عليها ومنعها الخروج، إلا أنها أَبَتْ ذلك، لتتساقط في النهاية رغمًا عنه معلنةً للجميع حجم الألم النفسي والجسدي الذي عاناه هذا الطفل الصغير في تلك المدة. ليسارع حامد بمسح دمعاته رغبةً منه في إخفائها عمن حوله، ولكن يبدو أن محاولته تلك قد باءت بالفشل في النهاية، فعلى خلاف كلٍّ من سعيد وعبير اللذين كانا منهمكين في نقاشهما الحاد، كانت إحسان تتابع كل حركة وتفصيلة يُصدِرها

حامد في صمت وهدوء شديد، لتضمَّه إلى ضلوعها وتقبِّله من رأسه بمجرد سقوط تلك الدمعات من عينيه، في الوقت نفسه الذي بدأت الأصوات تتعالى من كِلا طرفي النقاش -أو إن صح القول الصراع- إلى درجة بلغت من الفوضى مبلغًا لم يستطع قطعه سوى أصوات حامد وأخته الرضيعة اللذين شرعا في البكاء بكل قوة وشراسة خوفًا وهلعًا من هول الموقف، الأمر الذي أجبر الحاضرين على أخذ هدنة إجبارية سعيًا إلى تهدئة الطفلين اللذين أطفأ بكاؤهما نيران تلك المعركة الكلامية ولو بشكل مؤقت، ليقوم سعيد على إثر ذلك ومن معه بالنهوض من أماكنهم في صمت

شديد متجهين صوب عتبة الباب، التي ما كادوا يصلون إليها حتى التفتَ إلى عبير محدثًا إياها:

- لقد انتهى النقاش بيننا ولم يعد هناك مجال لمزيد، ولكني أعدك بأن هناك لقاءات كثيرة ستجمعنا معًا، ولكنها لن تكون هنا وإنما في المحكمة حيث سيفصل القاضي بيننا، واعلمي جيدًا أنني لن أتنازل أبدًا عن أي حق من حقوق حامد مهما كان ضئيلًا.

ويغلق باب المنزل خلفه بمجرد إنهائه قوله بكل قوة تعبيرًا عن غضبه الشديد، فتتحول نظرة القلق والغضب لدى عبير إلى نظرة مكر وحقد وكراهية امتزجت بالسخرية، بعدما تأكدت من إتمامها آخر

خطوة من مخططها الذي وضعته بكل إتقان لضمان أفضل مستقبل ممكن لابنتها، تلك الابنة التي سرعان ما ضمتها إلى صدرها حتى تُطمئِن نفسها بأن كل ما فعلته من انتهاكات سابقة، سواء بحق زوجها أو ابنه، كان يستحق.

أما عن سعيد، فكان كل ما يشغل ذهنه في طريق عودته هو البحث عن أفضل وسيلة تضمن الحفاظ على حق حامد، ليتوصل إلى أن الطريق الأسلم هو الطعن في صحة تلك الوثيقة، وعلى الرغم من ضعف نتيجته في حالة صدق رواية عبير، فإنه في النهاية قرر المضي قدمًا في طريقه، ولكن ظروف عمله أبت إلا وأن تكون عقبة أمام استكماله مساره، إذ انتهت إجازته بعد بضعة أسابيع، وهو

ما اضطره إلى العودة إلى عمله مرة أخرى وعمل توكيل لزوجته لمتابعة القضية بنفسها.

وفي يوم السفر، وقف سعيد وبجواره حقائبه، فيما وقفت أمامه زوجته لتوديعه والابتسامة تترسم على وجهها:

- سأشتاق إليك!

- وأنا أيضًا، ولكني أعدك بأن هذه المرة سوف تكون الأخيرة، وبعد عودتي سأستقر هنا معكِ يا حبيبتي أنتِ وحامد ابننا.

عندها طأطأت إحسان رأسها خجلًا، لتحدثه بصوتٍ منخفض:

- أعلم، وهذا هو ما يصبرني على تحمل بُعدِك تلك المرة.

لتفاجأ بمجرد إتمامها قولها بتقبيل زوجها إياها وضمها بين ضلوعه، فتبادله التقبيل والعناق في حالة من العشق والاشتياق، ختمها سعيد بقوله بكل هدوء:

- سأغادر الآن حتى لا أتأخر عن العمل، لن أوصيكِ بحامد.

- سافر وأنت مطمئن، حامد ابني وسيظل كذلك، سأعامله خير معاملة.

عندها اطمأن قلبه، ليحمل حقائبه على كتفه بعد أن ارتسمت ابتسامته المميزة على وجهه، قبل أن يركب سيارة العمل، التي سرعان ما تحركت به،

في حين وقف الاثنان (إحسان وحامد) خارج المنزل ينظران إليه حتى اختفت سيارته في قلب الأفق.

***

مرت ساعتان كاملتان ظلت فيهما جميلة فاقدة الوعي، قبل أن تسترده لتفتح عينيها وتجد نفسها مُقيَّدةً أعلى طاولة مزودة بعدد كبير من الأربطة بغرض تثبيت الموضوع عليها، وقد توسطت الغرفة التي احتُجِزت فيها والتي كانت أقرب ما تكون في وصفها إلى غرف العمليات، إلا أنها كانت علاوة على مظهرها مزودةً بنظام عازل للصوت، وكذا تضم في جدارها الجنوبي وعاءً ضخمًا أشبه بحوض

...

الاستحمام، يقع على يسار جميلة التي ما إن تلفتت حولها حتى وجدت جاسر جالسًا أعلى رأسها، ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة ومخيفة ونظرة تفيض بالجنون وشهوة القتل، ليحدثها وهو على حالته تلك:

- صباح الخير، أخيرًا اجتمعنا معًا، ما رأيك أن نبدأ لعبتنا الآن؟

جميلة بعصبية امتزجت بالرعب، وهي تحاول يائسة التخلص من وثاقها:

- عن أي لعبة تتحدث؟! افكُكْ وثاقي.

- هل يعقل حقًّا؟! ألا تعرفين عن أي لعبة أتحدث؟! اللعبة التي دومًا ما أحببتِها ومارستِها

معي، لعبة الموت! وبالمناسبة، أريدك اليوم أن تصيحي بأقصى ما عندك، ولتطمئني، فمهما صرختِ لن يسمعك مخلوق سواي.

وبمجرد قوله آخر كلمة، سارع بتغطية وجهها بمنشفة بيضاء، خطوةً أولى في رحلة عذابها وحرمانها من وصول الهواء إلى رئتيها بواسطة إغراقها في الماء، في الوقت نفسه الذي كاد يشق صراخها المكتوم عنان السماء، إذ انتفضت أطراف جسمها كافة كمن صُعِق بشحنة لا تنتهي من الكهرباء، في محاولة يائسة منها للنجاة من ذلك البلاء.

ويستمر الوضع على تلك الحال لثلاثين ثانية كاملة عانت فيها الأمرَّيْن، رفع بعدها الغطاء عن وجهها،

لتسارع هي ببصق كل ما ابتلعته من مياه، ليحدثها بكل هدوء دون أن تفارق ابتسامته محياه:

- ها، هل أنت مستمتعة معي في لعبتي الصغيرة؟

جميلة بصوت منهك من أثر كتم أنفاسها طوال الثلاثين ثانية:

- أرجوك اتركني! افكُكْ وثاقي.

- أتركك! أفك وثاقك! ومن سيشاركني متعة اللعب اليوم إذا تركتكِ ترحلين؟! وكيف أتركك بعدما عرفتِ المكان وعرفتِ شكلي؟!

لتبدأ الدموع تنسال من عينيها بلا توقف ندمًا على مرافقته في تلك الليلة المشؤومة، وكذا سعياً منها في

محاولة يائسة إلى استعطافه، علّه يشفق عليها ويتركها لحال سبيلها.

- أرجوك، لا أريد أن أموت! اتركني أرحل وأقسم لك أنني لن أخبر أحدًا بما حدث، لن أخبر أحدًا عن شكلك ولا عن هذا المكان ولا عن أي شيء، ولكن أرجوك دعني أرحل، لا أريد أن أموت!

جاسر بعد أن رسمَ على وجهه علامات الحزن والتأثر:

- أوتدرين، لقد شعرت بالشفقة تجاهك، بل كادت عيناي تنزفان دمًا بدل الدمع من شدة

الحزن عليك، أنا أصدقك، حسنًا إذًا، هذه رغبتك فيجب أن أحققها.

ويمسك في تلك اللحظة أحد الأربطة التي تقيد حركتها كي يبدأ في حل عقدتها، وهو ما جعل جميلة تشعر أخيرًا بانفراج أزمتها ونجاح مسعاها، إلا أنه ما كاد يبدأ في ذلك حتى توقف فجأةً لتعود ابتسامته الجنونية إلى احتلال مكانها في وجهه، قبل أن يحدثها قائلًا:

- ولكنك نسيتِ شيئًا مهمًّا، رغباتك اليوم لا قيمة لها، فأنا المتحكم في اللعبة وقواعدها وليس أنتِ كما اعتدتِ، وبالفعل أنتِ لن تخبري أحدًا بما يدور بيننا اليوم، ولكن رغمًا عن أنفك وليس بملء

إرادتك كما ذكرتِ. والآن ما رأيك أن نبدأ جولة جديدة في لعبتنا بعد تلك الاستراحة التي استهلكناها في ذاك الحديث الشيق؟

ويكرر معها التجربة نفسها دون انتظار منه لإجابتها لتمر بالآلام نفسها مرة أخرى، التي بمجرد إنهائها سارع برفع المنشفة الغارقة بالماء من فوق وجهها ثم قال:

- ها، ما رأيك الآن؟

- أرجوك اتركني أرحل، أرجوك لا أريد مالك!

جاسر محدثًا إياها وهو يداعب ذقنه كمن يفكر في أمر مهم، بعدما ارتسمت على وجهه ملامح الجدية:

- في الحقيقة أنا متعجب من رد فعلك، كيف لا تحبين لعبة الموت وأنتِ من وضعتِ قواعدها ودائمًا ما كنتِ تستمتعين بممارستها عليَّ قديمًا؟!

جميلة بصوت صارخ بعد أن فقدت آخر أمل في إشفاقه عليها وتحريرها:

- عن أي لعبة تتحدث؟! وكيف كنت معك فيما مضى وأنا لم أركَ إلا اليوم؟! أنت شخص مخبول! دعني أرحل، لا أريد أن أموت!

- سأتغاضى عن إساءتك في حقي مراعاةً لوضعك الحالي، ولكن يبدو فعلًا أنك لا تتذكرين، ولذا ما رأيك في أن ننعش ذاكرتك بزيادة مدة الجولة، علَّكِ تتذكرين ماضيكِ معي؟

ليضعٍ المنشفة الغارقة بالماء على وجهها مرة أخرى، معيدًا معها الكرة للمرة الثالثة، ولكن هذه المرة لخمسة وأربعين ثانية، كادت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة فيها، قبل أن يرفع المنشفة عنها ليحدثها مرة أخرى والابتسامة ما زالت تعلو محياه:

- ها، أتذكرتِ؟

جميلة صارخة بيأس:

- قلت لك لا، لا!

جاسر بنظرة حملت الأسي الزائف بين طياتها:

- ما دمتِ تصرين على موقفك بهذا الشكل، فهذه رغبتك ولا بد لي أن أحترمها، ولكن تذكري، فقد

بقيت أمامك فرصة واحدة، فإما أن تتذكري وإما أن تنتهي حياتك ومأساتك هنا وبين الناس لا تُذكَرين.

ليكرر بعدها الأمر نفسه معها بالمدة نفسها، قبل أن يرفع عن وجهها غطاءه ويحدثها بكل هدوء:

- ها، كيف حالكِ الآن؟

جميلة بعد أن تملكها اليأس والاستسلام وبصوتٍ مليءٍ بالرجاء وعينين هلكتا من شدة النحيب والبكاء:

- أرجوكَ ارحمني! أنا لا أعرف عن أي لعبة تتحدث، أنا حتى لا أعرفك، أرجوك ارحمني.

جاسر صارخًا بنبرة امتزج فيها الغضب بالقهر بالرغبة الملحة في الانتقام، التي تفجرت على إثرها منابع عينيه من شدة الانفعال لأول مرة منذ بداية تلك الليلة:

- أرحمك! وأنتِ لِمَ لمْ ترحمي من دمرتِهم واستخدمتِ آلامهم وبكاءهم في بناء صرحك المكسو بدماء كل من مررتِ بحياتهم؟! إن أمثالك هم من خربوا حياة الأبرياء وهم من لا يجب أن ينالوا أي رحمة في دنياهم.

وتكون تلك آخر كلمات تسمعها أذناها منه قبل أن تتسارع أنفاسه ويفقد السيطرة على أعصابه ليصرخ بأعلى صوته، بينما تنهمر الدموع من عينيه

قبل أن يغطي وجهها للمرة الأخيرة ويعاود سكب الماء عليه، ولكن هذه المرة بلا توقف ومن دون حد زمني، مدفوعًا برغبته المتأججة بداخله في ملء فجوة الانتقام التي غزت كل ذرة من قلبه وعقله، في الوقت نفسه الذي كانت صرخاتها المكتومة وانتفاضات جسدها تعلو وتتصاعد بشكل هستيري في مقاومة يائسة منها سعياً إلى إنقاذ حياتها، قبل أن تصمت إلى الأبد ويعم الهدوء الغرفة معلناً عن وفاتها.

ويرفع جاسر في تلك اللحظة المنشفة عن وجهها، لينظر إليها نظرة جمعت ما بين الاحتقار والانتقام، قبل أن ينهض من جلسته أخيرًا بعدما هدأت أنفاسه من تسارعها وانفعالها، ليكفكف دموعه

التي سالت في آخر لحظات تسليته، أو انتقامه بمعنى أصح.

ويظل على تلك الحال بضع دقائق، بدأ بعدها بكل هدوء -ينم عن تعوده على ذاك الأمر- في فكِّ الأربطة عن الجثة قبل نقلها هي وكل متعلقاتها إلى الوعاء الأزرق المجاور لها، المصنوع من مادة البولي إيثلين، الذي ما إن انتهى من نقلها إليه حتى ارتدى بذلة من المادة نفسها (أشبه بتلك التي يرتدونها في المعامل الكيميائية والمفاعلات النووية)، وكذا قناعًا واقيًا من الغاز، تمهيدًا لإغراق جثتها في حمض الهيدروفلوريك المركز، الذي بمجرد تأكده من امتلاء الوعاء به عن آخره غطَّاه بغطاءٍ من المادة نفسها، ثم غادر الغرفة لقرابة

يومين ما إن انقضيا حتى عاد إليها مرة أخرى، ليجد الحمض قد نجح في إذابة خلايا الجثة كاملة وما وضع معها كله وتحويلهم إلى سائل أسود لزج، وهو ما منحه الضوء الأخضر لأداء آخر خطوة في التخلص منها إلى الأبد، ألا وهي تخفيف محتويات الوعاء بكميات ضخمة من المياه لتصريفها إلى مواسير الصرف الصحي، فتسير بذلك خلايا جميلة جنباً إلى جنب مع كل ما يتخلص منه البشر من مخلفات طبيعية وتستقر معاً في النهاية في مرقدها الأخير.

***

انقضت منذ لحظة سفر سعيد إلى قلب البحار خمسة أشهر كاملة، قضاها داخل واحدة من السفن التجارية التابعة للشركة الدولية للملاحة البحرية، وقد غادرت للتو ميناء ديربان الواقع في جنوب إفريقيا متجهةً صوب ميناء سانتوس القابع في ولاية ساو باولو البرازيلية.

وتحل مدة الراحة اليومية ليستغلها سعيد في التجول على ظهر السفينة، رغبة منه في استنشاق هواء المحيطات النقي والمعبأ برائحة اليود المميزة، التي لم يعكر صفوها سوى عوادم المحركات المنبعثة من سفينته، وكذا البحث عن مكانٍ خالٍ من البشر يستطيع فيه الاطلاع على ما أُرسِلَ إليه، الذي بمجرد عثوره عليه وتأكده من خلوه من أي كائن بشري

وجَّه ظهره إلى سور السفينة ليخرج من معطفه الخطاب الذي ورد إليه من زوجته وتسلمه صباح اليوم. ليسارع بفضّ الجزء الصمغي منه كي يبدأ في الاستمتاع بكلمات زوجته ومحبوبته داخل إطار من الخصوصية اعتاد ألا ينتهكه حتى في أثناء بعده عنها:

«زوجي الحبيب ومعشوقي الوحيد..

لقد اشتقتُ إليك كثيرًا، تمر الأيام طوال، مملة، كئيبة في بُعدك إلى درجة أنني ما عدت أطيق الانتظار لحظةً أطول.

أعلم أنك تعاني من مرارة السفر والاغتراب كي تستطيع أن تؤمن لنا حياة كريمة، ولكني أيضًا أعاني من مرارة

الوحدة ولوعة الاشتياق، إلا أن عزائي الوحيد هو تذكري وعدَك كلما غلبني اشتياقي إليك، بأن هذه المرة ستكون الأخيرة وأنك بعدها ستستقر هنا لنعيش معًا ما تبقى من عمرنا.

أرجوك لا تحزن من حديثي يا حبيبي، ولكني لا أجد سواك أخبره بما أشعر بهذه الصراحة، فأنت لست زوجي فقط، أنت حبيبي ومعشوقي وأخي وأبي وكل ما لدي.

أريدك أن تطمئن علينا، فنحن جميعًا بخير ولا ينقصنا سوى وجودك معنا.

بالمناسبة، كي لا أنسى، في خطابك السابق طلبت مني أن أخبرك بآخر مستجدات قضية ميراث حامد، في الحقيقة لم أكن أرغب في إخبارك بذلك الأمر، ولكني في الوقت نفسه لا أرغب في إخفاء الأمر عنك ومخالفة رغبتك في معرفة المستجدات. لقد خسرنا قضية حامد، ولكني لا أريدك أن تحزن، الأهم أنك ستعود إلينا قريبًا بإذن الله.

وفي نهاية الخطاب أوصيك بنفسك، حافظ عليها واهتم بها وعُدْ إلينا سالمًا، فإننا جميعًا نشتاق إليك.

زوجتك الحبيبة.. إحسان».

ليشعر بحالة من الدوار بمجرد إنهائه قراءة الخطاب، لم يدرِ إذا كانت بسبب إصابته مؤخرًا بالضغط أم بسبب حزنه لما آلت إليه قضية حامد، تبعها قيء أجبره على الالتفاف سريعًا وإفراغ ما في معدته بشكل مستمر من حافة السور المطل على مياه المحيط، إلى درجة بلغت حد الإعياء.

وبينما هو على تلك الحالة، إذا بزميل غرفته حسين يلمحه من بعيد، فانطلق نحوه بأقصى سرعة رغبة منه في الاطمئنان عليه، ليراه بذلك الشكل وهو ما دفعه إلى نقله إلى المشفى الملحق بالسفينة، ذلك المشفى الذي ما كادا يقتربان منه حتى شرع حسين في الصراخ طلبًا للنجدة من أحد العاملين فيها، بخاصة أن زميله كان بالكاد قادرًا على السير

معه، إلا أنه وعلى عكس المتوقع خرج لهما أحد الأطباء الشباب الحديثي التعيين في الشركة صارخًا فيهما بحالة امتزج فيها الحنق بالغضب:

- مهلًا مهلًا! أين تظن نفسك؟! اخفض صوتك قليلًا!

- آسف يا دكتور ولكني وجدت زميلي في حالة إعياء وقيء شديدين، فرغبت في تفحصه للاطمئنان عليه.

ليشرع الطبيب في فحص سعيد فحصًا لم يتجاوز خمس دقائق، قال له بعدها بكل ثقة:

- الأمر بسيط ولا يحتاج إلى كل هذا التهويل، يبدو أن زميلك يعاني من دوار البحر، سأكتب له على يوم راحة وأصرف له هذا الدواء.

ويبدأ الطبيب في كتابة التقرير الخاص بيوم الراحة والدواء المطلوب، إلا أنه ما كاد يفعل ذلك حتى قاطعه حسين متسائلًا:

- ولكن يا دكتور...

- ماذا؟ هل هناك شيءٌ آخر؟

- أجل، هل حضرتك متأكد من أن ما يعانيه سعيد مجرد دوار بحر؟! فأنا لم أشهد في حياتي حالة قيء أو إعياء بدوار البحر في مثل تلك الشدة!

حينها توقف الطبيب عن كتابة تقريره ورفع بصره إلى المتحدث ليرد عليه بكل سخرية:

- أظن أنك على حق، فعلى ما أتذكر أنت درست الطب في كبرى الجامعات العالمية ولديك خبرة تؤهلك لتحديد المرض بمجرد رؤيته حتى دون فحص المريض، أليس كذلك؟!

- عفواً يا دكتور أنا لم أقصد...

إلا أن الطبيب قاطعه بحسم:

- تفضل يا أستاذ وخذ معك زميلك وهذا هو التقرير الخاص بالراحة ومعه الدواء، وأتمنى أن لا تتدخل فيما لا يعنيك بعد ذلك.

ليسند حسين رفيقه عائدًا به إلى غرفته متأففًا، إذ أعطاه دواءه وتركه عائدًا إلى عمله، الذي ما إن أنهاه حتى عاد أدراجه إليها مرة أخرى طلبًا للراحة وكذا للاطمئنان على زميل غرفته ورفيقه في العمل، محدثًا إياه بمجرد دخوله مُمازحًا:

- كيف حالك الآن؟ أرجو أن تكون بخير وأن يكون ما فعلته صباحًا قد استحق تعرُّضي للإهانة من ذلك المتعجرف.

إلا أنه لم يتلقَّ أي رد على حديثه، عندها تسرب القلق إلى قلبه خوفًا على زميله، فحدثه بصوتٍ يشوبه القلق الممزوج بالخوف وهو يلتفت باتجاهه للاطمئنان عليه:

- سعيد! هل أنت بخير؟ لماذا لا ترد على حديثي؟

ليفاجأ بصديقه شاحب اللون وأقرب ما يكون إلى لوح ثلج عن كائن بشري من شدة انخفاض درجة حرارته والمصحوبة برعشة شديدة، حينها صرخ طلباً للمساعدة التي لم تتأخر عليه طويلاً، إذ هرع إليه اثنان من المشفى لحمله إليه بعد أن رُفِعت حالة الاستعداد فيه لاستقباله، وبدأ كل فرد في المشفى في أداء دوره، فهذا يوصله بأجهزة قياس نبض القلب وضغط الدم، بينما يحقنه ذلك بالمحاليل الطبية اللازمة، في حين يبعد ثالث التجمهر حول المشفى من العاملين كي يتمكن الأطباء والممرضين من أداء عملهم.

★★★

في صباح اليوم التالي، تحديدًا الساعة العاشرة صباحًا، وبينما كان حامد في مدرسته وإحسان منهمكة في أداء أعمالها المنزلية اليومية، إذا بهاتف المنزل ينتفض إعلانًا عن وجود أحد على الطرف الآخر يرغب في الرد عليه، لتقوم إحسان بتلك المهمة قائلة:

- ألو.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- هل هذا منزل الأستاذ سعيد الموظف في الشركة الدولية للنقل البحري؟

- أجل، من معي؟

- هل أستطيع أن أعرف من معي؟

- معك زوجته، من معي؟

- مع حضرتك أحمد محسن، موظف في مقر الشركة وأحمل لكِ بعض الأخبار بخصوص الأستاذ سعيد.

- ما الأمر؟ هل سعيد بخير؟

- ...

إحسان بعد أن بدأ القلق في التوغل بداخلها شيئًا فشيئًا:

- ألو، هل تسمعني؟

ليقول أحمد محسن بهدوء مبالغ فيه:

- أجل يا سيدتي، أسمع حضرتك بوضوح.

إحسان بمنتهى العصبية والانفعال:

- إذًا لِمَ لمْ تجب عن سؤالي؟! هل سعيد بخير؟

أحمد محسن بعد تنهيدة طويلة:

- من دون أي مقدمات، لقد أصيب أستاذ سعيد في صباح اليوم بهبوط حاد في الدورة الدموية، نقل على إثره إلى المشفى الخاص بالسفينة، ولكن قضاء الله كان أسرع، إذ فارق الحياة بعدها بنصف ساعة.

لتصاب إحسان في تلك اللحظة بحالة من الصدمة والذهول أفقدتها قدرتها على الكلام لعدة لحظات.

- سيدتي، هل حضرتك معي على الخط؟

إحسان بعد أن تملكت علامات الذهول من كل ذرة في جسدها:

- أنت تمزح، أليس كذلك؟!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أرجوكِ يا سيدتي تمالكِ نفسك فأنتِ امرأة مؤمنة، وأرجو من حضرتك أو أحد ذويه التوجه إلى الميناء بعد ثلاثة أيام لاستلام جثمانه الذي سيصل إليه في خلال ذلك الوقت، وكذلك الذهاب إلى مقر الشركة لاستلام بقية مستحقاته وأغراضه.

•••

إحسان محدثةً إياه كما لو كانت طفلة تلخصت كل أمانيها في الحياة في رغبتها في أن يكون مُحدِّثها كاذبًا، كي لا يصدمها بحقيقة الواقع المؤلم:

- أرجوكَ قلْ لي إنك تمزح معي أو تكذب عليّ!

- أسأل الله أن يصبركم ويعينكم على مصابكم.

ليغلق الخط مباشرة بمجرد إتمامه كلماته، قاطعًا على إحسان أي طريق يمكنها من خلاله استكمال رجائها، تاركًا إياها ممسكة سماعة الهاتف وهي تصرخ بأعلى صوتها صراخًا امتزج فيه البكاء بالعويل بالنحيب، انهارت على إثره على أقرب كرسي وجدته بجوارها وتكومت عليه تاركة المجال لدموعها كي تنهمر كالسيول الجارفة حزنًا على فراق

ووفاة زوجها، الذي كان لها بمثابة الحامي والسند والأمان في تلك الدنيا في كثير من الأحيان.
وتظل على تلك الحالة لدقائق طوال امتدت حتى قدوم حامد من المدرسة، الذي فزع لرؤيتها على حالها تلك مما دفعه إلى الركض نحوها خوفًا وفزعًا محدثًا إياها بصوتٍ مرتجفٍ متقطعٍ في محاولة منه لتهدئتها:

- أمي، ماذا بك؟ أرجوكِ تحدثي معي ولا تقلقيني عليك، أرجوكِ يا أمي اهدئي، أرجوكِ يا أمي لا تحزني، أرجوكِ يا أمي توقفي عن البكاء!

في تلك الأثناء كانت إحسان في ملكوت آخر، منعزلة تمامًا عن كل ما هو كائن حولها، مكتفية

بما يدور في رأسها من إعصار للمشاعر والأفكار، لا تسمع أحدًا ولا ترى أحدًا، في حين تنهال دموعها من عينيها بشكل لا إرادي، إلا أنها في النهاية أفاقت على صوت حامد وكفه التي ظل يربت بها على كتفها محاولًا تهدئتها، لتمسح دموعها ثم تزيح كفه عنها بكل اشمئزاز وعصبية، قبل أن تنظر إليه بنظرة ملؤها الحزن الممزوج بالغضب وتحدثه بصوت أجش:

- أهدأ! لا أحزن! أتوقف عن البكاء! كيف ذلك وأنتَ في حياتنا؟! كيف ذلك وقد دخلتَ منزلنا؟! ألا تدري من أنت؟! ألا تدري أنك كتلة من الشؤم والنحس والخراب تجسدت على هيئة إنسان تطال كل من حاول الاقتراب منها؟! أنت قاتل

ومدمر لحياة كل من هم حولك، في البداية قتلت أمك بعد ثلاثة أعوام من ميلادك، وبعدها دمرت حياة أبيك إذ جعلته يقع في اختيار مصيري، إما أنت وإما زوجته الحامل في ابنته، وفي النهاية بعد أن أواك خالك في منزله تسببت في مقتله في عرض البحر.

كان تصرف إحسان مع حامد -الذي تحول بنسبة مئة وثمانين درجة عما كان في صباح اليوم نفسه- أكبر من استيعابه، نظرًا إلى صغر سنه، وهو ما جعله عاجزًا عن الرد نتيجة لصدمته وعدم فهمه، ولكن ذلك وعلى الرغم من عِظمه كان في نظره أهون بكثير مما وقع على مسامعه من كارثة كَسَتْه بالحزن واليأس، إذ أيقن أنه قد حُرِمَ وإلى الأبد

من رؤية خاله مثلما حُرِمَ قبل من رؤية أبيه وأمه، ليجد لسانه ينطق رغمًا عنه مهزوزًا متمنيًا من كل قلبه تكذيب ما سمعته أذناه:

- ماذا... قلتِ؟!

- كما سمعت، لقد مات خالك بعد أول إجازة قضاها معك، أرأيت كم أنت كتلة من الشؤم والخراب تهدد كل من يقترب منها؟!

لم يجد حامد ما يقوله، إذ كان ما يزال واقعًا تحت أثر الصدمة، ولكن إحسان لم تنتظر رده، إذ أكملت حديثها بكل حزم:

- والآن غادر من أمامي، فلا أريد أن أراك أو أسمع لك صوتًا في ما تبقى لك من أيام هنا!

•••

ولكنه لم يستطع التحرك من هول الصدمة، إذ ظل واقفًا كمن على رأسه الطير لا يحرك ساكنًا اللهم إلا قطرات تنسال من عينيه من دون توقف أو حساب. إلا أن إحسان لم ترحم كل ذلك، فسرعان ما أكملت حديثها معنفة إياه وصارخة في وجهه بكل قوة:

- ماذا تنتظر؟! غادر الآن!

لينتفض حامد في تلك اللحظة من شدة صرختها تجاهه، وهو ما دفعه إلى الانطلاق بأقصى سرعة صوب غرفته التي سارع بإغلاق بابها خلفه كي يلقي بجسمه على سريره متخذًا عليه وضعية الجنين التي طالما اعتاد اللجوء إليها في لحظات حزنه، محاولًا

قدر الإمكان أنْ لا يصدر صوتًا في أثناء بكائه أو نحيبه، خوفًا من أن يتسبب صوته في إزعاج زوجة خاله وزيادة غضبها عليه، ليحدث نفسه متسائلًا وهو على تلك الحالة:

- لماذا الجميع يكرهونني إلى هذا الحد؟! الكل دائمًا يعنفني ويهاجمني لسبب لا أفهمه، ما الذنب الذي اقترفته في حياتي؟! لماذا الكل يلومونني على ما يحدث لهم ويرغبون جميعًا في التخلص مني؟! أحقًّا أنا كتلة من الشؤم والخراب مثلما قالت لي أمي؟! وأنت يا خالي، لماذا تخليت عني؟! ألم تعدني من قبل بأنك ستظل سندي وحمايتي ما حييت؟! ألم تعدني بأنك لن تتخلى عني أبدًا؟! لماذا خالفت

وعدك معي؟! لماذا تركتني الآن وسافرت إلى أبي وأمي تاركًا إياي هنا وحيدًا؟!

ويظل يطرح تلك الأسئلة على نفسه دون أن يحصد منها إجابة واحدة. في الوقت نفسه الذي عادت إحسان إلى جلستها السابقة مرة أخرى، لتُغلّف بذلك جنبات المنزل حالةٌ من الحداد والصمت لم يستطع قطعها سوى أنات البكاء والنحيب الصادرة من الزوجة وابن الأخت اللذين لم يتصورا أن يفقدا بهذه السرعة من كان لهما كل شيءٍ في حياتهما.

الفصل الخامس

بدأت حالات اختفاء الفتيات بالتكاثر على مهل، ليولد من رحمها هلع دفع ذويهنَّ إلى السير حثيثًا صوب أقسام ونقاط الشرطة واحدًا تلو الآخر، رغبة منهم في العثور على فقيداتهم، بخاصة أولئك الذين لم يعلموا قط حقيقة عمل بناتهم، والذين كان من ضمنهم أم فائزة، التي توجهت في أحد الأيام إلى القسم التابعة له مستندة إلى أحد أقاربها وهي

بالكاد قادرة على جر قدميها من شدة المرض الذي تحالف مع خوفها على ابنتها التي لم تعد إلى منزلها، كي تصل في النهاية إلى المكتب الجالس خلفه واحدٌ من أمناء الشرطة الموجودين في القسم، إذ سرعان ما حدثته قائلة:

- مساء الخير يا ابني.

- مساء النور، تحت أمرك.

- أريد أن أسجل بلاغًا، ولكن أستأذنك بكرسي أجلس عليه بدايةً لعدم قدرتي على الوقوف.

- بكل تأكيد.

ليأمر أحد المجندين الواقفين بالقرب منه بسرعة إحضار كرسي للسيدة، التي ما إن جلست عليه حتى استكمل حديثه معها، بينما كانت تتسابق أنفاسها صعودًا وهبوطًا من أثر الطريق.

- قبل جلوسك كنت تقولين إنك ترغبين في عمل بلاغ، هل يمكن أن تبلغيني بتفاصيل أكثر؟

أم فائزة بنظرات كساها الاحمرار من شدة البكاء خوفًا من المجهول:

- اختفاء، أريد أن أبلغ عن اختفاء ابنتي، منذ أن خرجت للعمل قبل بضعة أيام لم تعد قط، وعندما حاولنا الاتصال بهاتفها مرارًا، كنا نجده دائمًا مغلقًا، أرجوك يا ابني ساعدني في العثور عليها.

•••

وتشرع في البكاء بمجرد إتمامها قولها، قبل أن يسارع الأمين بتهدئتها قائلًا:

- إن شاء الله سنعثر عليها، لا تقلقي، ما اسم ابنتك وعمرها؟

- فائزة والسن سبعة وعشرون عامًا.

- الاسم رباعيًّا لو سمحت، وكذا أريد وصفًا لملامحها ويفضل لو معكِ صورة حديثة لها.

لتخرج من حقيبتها صورة لفائزة، في الوقت نفسه الذي أملت عليه اسم ابنتها رباعيًّا كما طلب، قبل أن يسألها بعد تأمله الصورة التي سرعان ما وضعها جانبًا:

•••

- حسنًا أخبريني إذًا، هل ابنتك تعمل في مكانٍ ما؟

- أجل، تعمل ممرضة في مستشفى.

دون أن يلتفت لها مستكملًا تدوين ما تمليه عليه من معلومات في أثناء سؤاله:

- ما اسم ذلك المستشفى؟

- لا أعرف.

فيترك القلم من يده قبل أن يرفع بصره تجاهها، كي يحدثها قائلًا بانفعال سارع في لجمه مراعاةً لحالتها:

- ماذا؟! ألا تعرفين اسم المستشفى الذي تعمل فيه ابنتك؟! هل تمزحين معي؟!

- هذه الحقيقة والله يا بني، أنا حقًّا لا أعرف اسم المستشفى الذي تعمل فيه، فأنا بالكاد أستطيع التحرك عن سريري، وهي من تنفق على إخوتها الصغار وكذا علاجي، كل ما أعرفه أنها مستشفى خاص وقد اشترطوا عليها في أثناء تقديمها أن تعمل في الدوام الليلي في مقابل حصولها على مكافأة مالية إضافية، في البداية بالطبع رفضت ولكن حاجتنا إلى المال جعلتني أوافق مرغمة في النهاية.

ليتولد في تلك اللحظة حالةٌ من الشك لدى أمين الشرطة حاول إخفاءها قبل أن يحدثها قائلًا:

- ممم، دوام ليلي فقط! حسنًا، آخر سؤال وبعدها تستطيعين المغادرة، هل لابنتك أي أصدقاء أو

أقارب اعتادت المبيت عندهم أو نستطيع التواصل معهم؟

- أبدًا، لا يوجد لنا أحد.

- حسنًا، تستطيعين ترك عنوانك ورقم هاتف نستطيع التواصل معك من خلاله، وسنبلغك بكل التطورات في حال وصولنا إلى أي جديد بإذن الله، وهذا هو رقم البلاغ، احتفظي به لاستخدامه وقت الحاجة.

وتملي عليه التفاصيل التي طلبها لتوه، ليسارع بتسجيلها ثم تدوين رقم المحضر لها على ورقة بيضاء قبل إعطائه لها، فتنهض من فورها متكئةً على قريبها الذي سرعان ما سندها ليعودا من حيث

أتيا، بينما همَّ الأمين بالنهوض من مكتبه كي يسلم المحضر للنقيب ناصر الدين جلال، الذي أمر بسرعة التقصي عن تلك الحالة وأخذ الإجراءات المتبعة كافة معها.

وتمر قرابة سبعة أيام، عاد بعدها أمين الشرطة حاملًا إليه تقريرًا بخصوص اختفاء فائزة، ما إن تلقاه وتصفحه حتى ضمه سريعًا إلى ملفها الذي سرعان ما دفنه داخل أحد الأدراج بجوار رفقائه متأففًا، ليلاحظ تحول حالته تلك الملازم أول خالد نجيب، الذي نُقِل حديثًا إلى القسم فور تخرجه وجلس معه في المكتب نفسه، مما دفعه إلى سؤاله:

- ناصر باشا، ما الأمر؟

- لقد ضقتُ ذرعًا بهذه المهنة وكل ما ألاقيه فيها.

- ما الأمر الذي يستدعي كل ذاك الضيق؟! هل كل ذلك بسبب التقرير الذي أتاك منذ قليل؟

- تستطيع قول ذلك.

- وما الذي فيه يستدعي كل ذلك الانفعال.

- هذا الملف لحالة تُدعى فائزة، أتت أمها منذ قرابة أسبوع لتبلغ عن اختفائها.

- حسناً، وماذا فعلنا مع تلك الحالة؟

- الإجراءات المتعارف عليها بالطبع، دون أي نقصان، أوتدري ماذا اكتشفنا في النهاية؟!

- ماذا؟

- إن فائزة ما هي في الحقيقة سوى عاهرة، اسمها الحركي قمر، وهي ليست الحالة الأولى من نوعها التي تأتيني بالشكل نفسه، ففي الشهر الماضي كانت توجد حالة مشابهة وفي الشهر الذي يسبقه كانت توجد حالتان.

- أربع حالات في أقل من ثلاثة أشهر بالشكل نفسه! ألا يثير ذلك بعض التساؤلات؟! ثم ما علاقتنا بطبيعة مهنتها، وضيعة كانت أم شريفة؟! نحن أمام حالة اختفاء مُعرَّض صاحبها للخطر ويجب أن نتعامل معها بكل حرفية دون النظر إلى تفاصيل حياته.

ليقول ناصر بنظرة كستها اللا مبالاة ونبرة فاضت بالسخرية:

- خالد باشا أرجوك لا تحدثني بتلك المثالية، فالحياة ليست بهذه الصورة الوردية، عن أي خطر تتحدث؟! أنت ما زلت حديث العهد بالعمل في الشارع، أمثال هؤلاء الفتيات يأتي إليهن الزبائن من كل حدب وصوب، وفي الغالب يكون السبب وراء اختفائهن كل تلك المدة هو مقابلتهن زبونًا اتفق معهن على قضاء مدة شهر أو أكثر في شرم الشيخ أو الساحل الشمالي مقابل مبلغ كبير من المال، ومعروف بالتأكيد ما يفعلنه معه في تلك الرحلة، وبذلك فهن يمارسن البغاء بكل أريحية فيما يستمتعن بمنظر السواحل والمصايف، في الوقت

نفسه الذي نهلك نحن في البحث عنهن بسبب قلق أهلهن عليهن. ثم عن أي حرفية تتحدث؟! هل انتهينا نحن من القضايا كلها المتراكمة فوق رؤوسنا وصار مجتمعنا مثاليًّا إلى الدرجة التي تجعلنا نتفرغ للبحث عن تلك المراحيض البشرية العامة التي يستخدمها الذكور لتفريغ شهوتهم بداخلها؟!

فينظر إليه خالد في صمت متعجباً من وجهة نظره، في حين استمر الآخر في التأفف من المجتمع والواقع الذي يعيش فيه.

★★★

مضى على وفاة سعيد اثنا عشر عامًا كاملة، كان بطلها الرئيس في حياة حامد هو الحزن واليأس

والظلام، حتى بلغ ثمانية عشر خريفًا غرق في خلالها في عدد من الأزمات التي صارت جزءًا من حياته اليومية. فعلى الجانب النفسي والجسدي أصبح هزيلًا ضعيف البنيان والشخصية على حد سواء، أما على الجانب الدراسي فما كاد يقترب من الصف الثالث الإعدادي حتى سُحِب من الدراسة بشكل نهائي -بعد أن قضى أغلب مدة دراسته بعيدًا عن مدرسته- بواسطة أرملة خاله التي باتت مسؤولة عنه بعد وفاة زوجها، لتدفعه إلى العمل في مقهى الإنترنت الذي أسسته بأموال فقيدها، متعللة بأنها قد أنفقت عليه ما فيه الكفاية وبأنه منذ اللحظة وجب عليه الاعتماد على نفسه في نفقته الشخصية. ولكن في الحقيقة إن اختيارها لذلك

الميعاد بالتحديد وتلك الوظيفة على وجه الخصوص لم يكن اعتباطيًّا، بل تتويجًا لأعوام من الانتقام والحقد مارسته تجاهه، فهي بذلك قد ضمنت عدم حصوله على أي فرصة عمل توفر له حياة كريمة خارج سيطرتها، لأنه في ظل مجتمع صار يعاني حاملو المؤهلات العليا صعوبة إيجاد فرص عمل لائقة فسيكون بالتأكيد من شبه المستحيل على شابٍّ لم يحصد حتى شهادته الإعدادية أن ينافس في سوق العمل. كذلك فإن إبقاءها عليه تحت نظرها سيجعله هو وكل ما صار يملكه من مال تحت سيطرتها وإدارتها، مبررةً لنفسها أن هذا هو أقل تعويض يمكن أن تجنيه منه بعدما اقتحم حياتها وحياة زوجها وتسبب في تدميرها ومقتله

من وجهة نظرها، ومن أجل ذلك الهدف تحديدًا سعت بشكل مُمَنهَج إلى تدميره نفسيًّا بكل ما أوتيت من قوة، مدفوعة بما صارت تمتلكه من حقد وكراهية تجاهه.

وفي أحد الأيام، بينما كان حامد عائدًا من عمله مستقلًّا الحافلة التي طالما اعتاد ركوبها في رحلة عودته إلى مسكنه، شرد ذهنه عن وعيه ليقفز به في محيط أفكاره وأسراره السوداء، كي يدفعه دفعًا إلى تذكر كل ما مر به في خلال سنواته الماضية التي شهد فيها تحول معاملة إحسان له من العطف والحنين إلى البغض والازدراء ومن المحبة واللين إلى الكراهية والشدة، فبعد وفاة سعيد، بات يوم حامد عبارة عن جدول ثابت يبدأ باستيقاظه من

النوم متثاقلًا، ليجد أمام باب غرفته بمجرد أن يفتحه وجبتهَ المتواضعة التي صار لزامًا عليه أن تكفيه حتى المساء، فينهشها بأسرع ما عنده، ليس حبًّا فيها ولا إعجابًا بها، بل لأن الجوع أصبح جزءًا أساسيًّا من يومه. ثم يبدأ بمجرد انتهائه منها في التحرك بحذر داخل منزله، ليس خوفًا من شيء، بل رغبة منه في عدم إزعاج أرملة خاله التي صارت تتعامل معه كما لو أنه لا وجود له، ليس فقط داخل المنزل، بل وفي الحياة ككل. فإذا حاول مخاطبتها لا تحدثه، وإذا سألها لا ترد عليه، إذ صارت تشعر في قرارة نفسها بأنها المسؤولة الحقيقية عن مقتل زوجها، لأنها من وافقت في البداية على إقحام ذاك الطفل داخل حياتهما رغبة

منها في إسعاده وإرضائه، لكن الأمر انتهى بمقتله على يديه وبسببه، حسب ما تظن، ولا يصبرها على بقائه معها ووجوده في حياتها سوى نصيبه في ذاك المنزل الذي تقيم فيه، والذي ورثه عن كلٍّ من أمه وخاله وكذا وصية زوجها التي كانت تحرقها من داخلها. ولكن ذلك الوضع ما كان يتسبب إلا في زيادة حالة الضيق التي صارت مع الوقت تتملكه وتسيطر عليه، لشعوره بأنه بات مهجورًا، وهو ما كان يدفعه في كثير من الأحيان إلى التخلي عن حذره في محاولة يائسة منه لِلَفْت انتباهها وإيقافها للحديث معها، راجيًا أن تعيره انتباهها كي يفهم سبب ذلك التحول في المعاملة الذي لم يستوعبه، بينما تنهال الدموع من عينيه وهو يقول:

- أمي، لماذا تكرهينني هكذا؟! أرجوكِ أخبريني لماذا أنتِ غاضبة مني؟ هل أزعجتك في شيء؟ أرجوكِ ردي عليَّ وأعدك بأنني لن أضايقكِ مرة أخرى، سأكون مطيعًا ولن ألعب في الخارج لأوقات طويلة، ولكن أرجوكِ ردي عليَّ ولا تتجاهليني!

وعلى الرغم من محاولاته المستميتة الساعية إلى إصلاح ما تسبب بإفساده حسب ما يظن، ما كان يجد من أرملة خاله إلا ردًّا واحدًا، ألا وهو التجاهل، إذ كانت تتجاوزه كما لو كان غير موجود على الإطلاق، تاركة إياه ينزف دموعه وحيدًا، تارة في موضعه وأخرى داخل غرفته وهو غير مستوعبٍ سبب ذلك التحول على الإطلاق، فيظل يبكي طوال يومه حتى يغرق في النوم من

شدة التعب والإعياء، كي يستيقظ في اليوم التالي ليعيد الكرة مرة أخرى.

★★★

ويطفو في تلك اللحظة من محيط أفكاره عائدًا إلى الواقع، في الوقت نفسه الذي أطلقت حافلة النقل العام صفارتها معلنةً وصولها إلى محطة نزوله، لينهض متثاقلًا عن مقعده عائدًا إلى منزله، أو بمعنى أصح الذي كان في يومٍ من الأيام منزله، والذي بمجرد اختراقه جدرانه ووصوله إلى مدخل صالة استقباله وقف لدقائق يتأملها، ليغوص مرة أخرى في محيط تلك الذكريات التي يبدو أنها قد تحالفت وأقسمت على أنْ لا يمر عليه ذلك اليوم إلا بعد

أن يكون قد استعاد جزءًا كبيرًا مما مر به من مرارة في خلال سنواته الماضية، تلك المرارة التي سعى جاهدًا إلى دفنها ووأدها بكل ما امتلك من قوة.

***

فبعد انقضاء عدة أسابيع على وفاة سعيد، عادت أخيرًا السفينة التي كان يعمل فوقها إلى الميناء مرة أخرى، ليهبط منها حسين زميله في العمل الذي أصر على أن يكون أول مكان يزوره بعد أن ينال قسطه من الراحة هو منزل صديقه الراحل، لأداء واجب العزاء والاطمئنان عليهم، غير مدركٍ أنه بزيارته هذه قد منح إحسان الضوء الأخضر للتلذُّذ

بتفريغ جَمِّ غضبها على ذاك الطفل السيئ الحظ بكل أريحية وراحة بال، ففي أثناء وجوده داخل المنزل وفي أثناء جلوسه معها، سألته قائلة:

- أرجوك حدثني، كيف كانت لحظاته الأخيرة؟

عندها شرع الأخير في تلك اللحظة بسرد كل ما مر به مع صديقه في آخر ساعاته، بداية من رؤيته على ظهر السفينة ممسكًا بخطابٍ في يده في حين كان يتقيأ على حافة سور السفينة، مرورًا بذهابهما إلى طبيب المشفى الخاص بالسفينة، وما لقياه فيه من معاملة سيئة وإهمال طبي، وصولًا إلى عودته إلى غرفته في نهاية يوم عمله الطويل طلبًا للراحة والاطمئنان على زميله، إذ وجده يلفظ أنفاسه

الأخيرة وهرولة الجميع لإنقاذه بعدما تأخروا في علاجه. ويُسكَب البنزين في تلك اللحظة في قلب إحسان الذي لم تنطفئ نارُه من الأساس مع كل حرف ينطقه، لتتفجر بسببها منابع الحقد والكراهية تجاه حامد حين تأكدها من أن زوجها ما تُوفي إلا نتيجةً لتعلقه بذاك الفتى، متجاهلةً ما ذكره ضيفها بخصوص ما عاناه فقيدها من إهمال طبي وكذا مرض الضغط الذي سهل إصابته بالهبوط الحاد في الدورة الدموية وهو ما أودى بحياته في النهاية.

فتنهض إلى الطابق الثاني بمجرد مغادرة حسين، متجهةً إلى غرفة حامد، سعياً منها إلى تفريغ بركان الكراهية والغضب الذي تفجرت حممه بداخلها لتوها، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال نائماً عند

دخولها عليه، فإنها لم ترحمه وتنتظر استيقاظه، إذ بات في نظرها ومنذ تلك اللحظة حصولُه على نوم هانئ بداخل ذلك المنزل حالةً من الرفاهية لا يحق له تملكها. لتنقض عليه بكل وحشية وهمجية مثلما تنقض الضواري على فرائسها، موقظةً إياه من سباته العميق على حالة من الهلع والفزع تملكت كل ذرة من جسمه وعقله، تبعتها ثوانٍ ثقالٍ من الصمت غلفت جهاز النطق عنده، إلا أنه في النهاية وبعد مشقة ومعاناة نجح أخيرًا في سؤالها:

- ما الأمر يا أمي؟! هل فعلت شيئًا أزعجك؟

ولكنه ما كاد يكمل سؤاله حتى أتاه الرد عاصفًا مدمرًا متمثلًا في صفعةٍ كادت أن تجعل فمه ينزف دمًا، لتقول والشرر يتطاير من عينيها:

- اخرس! إياك أن تناديني بأمك مرة أخرى، فأنا لم أكن يومًا كذلك ولن أكون! أنت نذير شؤم، جالب للخراب أينما حللت، فمنذ أن اقتحمت منزلنا وأنا أبغضك وأخشى أن تتدمر حياتنا بسببك، ولكن ما منعني التخلص منك آنذاك هو حب زوجي لك واعتبارك ابنه الذي لم ينجبه. زوجي هل تتذكره؟! إنه خالك، ذاك الرجل الذي حلّت عليه لعنتك بمجرد اقترابه منك وتحمله لهمومك، تلك اللعنة التي قتلت من قبله أبوك وأمك.

- أمي... أنا لا أفهم! ما الذي يحدث؟!

فيتلقى على خده الآخر ردًّا على سؤاله صفعةً كادت أن تخلع رأسه من فوق كتفيه، استأنفت بعدها حديثها وهي تصرخ في وجهه:

- قلت لك لا تناديني بأمك فأنت لست ابني! منذ اليوم، لا بل منذ اللحظة، لن تقيم في هذه الغرفة لحظةً أخرى وستقضي ما تبقى لك من أيام وحتى مماتك داخل القبو الذي اعتدنا إلقاء فيه ما لدينا من مخلفات، فهناك ستعيش وهناك ستموت، فلا أريد أن أراكَ داخل هذا المنزل مرة أخرى ما حييت.

•••

وتسحبه من غرفته بمجرد إنهائها قولها وجرّه خلفها نحو مثواه الأخير، الذي حكمت عليه أن يقضي فيه ما تبقى له من أيامٍ وأعوام. في الوقت نفسه الذي كان حامد غارقًا في حالة هستيرية من الصراخ والبكاء المصحوب بسيل من الاعتذارات عن ذنبٍ لم يدرِ ماهيته، في محاولة يائسة منه لاستجداء عطفها ورحمتها. إلا أن قلب إحسان في تلك اللحظة كان قد خلا من أي شكلٍ من أشكال الرحمة أو العطف أو الإحسان، إذ صرخت في وجهه بمجرد وصولها إلى باب القبو:

- اخرس! لا أريد أن أسمع صوتك مرة أخرى، واعلم أنك منذ اليوم لن تأكل إلا من طعام شادو، ولتحمد ربك أنني سأسمح لك بالبقاء حيًّا هنا ولن

أتخلص منك بإلقائك في الشارع مثلما فعل معك والدك من قبل.

فيتذكر في تلك اللحظة ما فعله والده معه، مما هدَّأ من نحيبه ولو قليلًا، وهو ما استغلته إحسان في إغلاقها باب القبو بقوة وسرعة كادت أن تخلع مفاصلة، وكذا قلب حامد من بين ضلوعه. لينطوي بعدها على نفسه في ذاك المكان المظلم الموحش الخالي من أي شيءٍ آدميّ، اللهم إلا من بصيص نور صغير وبضعة مخلفات بينها عدد من الكتب والروايات اعتاد أصحابها إلقاءها بداخله.

★★★

ويفيق حامد في تلك اللحظة من شرود ذهنه على عدد من قطرات المياه الجارية على وجهه وخديه، لم يدرِ منبعها، هل هو عيناه وروحه حزنًا على نفسه، أم السحب التي كست السماء قبيل إفراغها مائها، والتي ظن لوهلة أنها تشاركه أحزانه فتبكي معه حزنًا على ما آلت إليه حياته. ليجد نفسه ما يزال واقفًا أمام صالة استقبال منزله الذي صار محرمًا عليه دخوله، وهو ما دفعه إلى طأطأة رأسه والالتفاف بجسمه رغبة منه في انتهاء ذلك اليوم الذي تذكر فيه جزءًا كبيرًا من معاناته في السنوات الماضية، تلك المعاناة التي أنهكته ودمرته مما دفعه إلى الاحتماء بالقبو الذي صار ملاذه الوحيد

والمكان الذي وجد فيه من الراحة والطمأنينة ما لم يجده عند أحد من الذين عاش معهم.

★★★

وتبدأ شمس الصباح في الصعود تدريجيًّا إلى السماء معلنةً بدء اليوم التالي، ليتسلل ضوؤها على استحياء داخل إحدى غرف منزل الراحل محمود عادل، موقظًا نور ذات الثلاثة عشر ربيعًا، أخت حامد الصغرى، التي فتحت عينيها ما إن لامستها أشعة الشمس كما تتفتح الزهور في موسم الربيع ببطءٍ وجمالٍ معلنةً استيقاظها واستقبالها يومًا جديدًا، لتنهض من فورها عن سريرها متجهةً إلى الحمام لإلقاء بعض قطرات المياه الباردة على جسمها

وكذا لقضاء حاجتها، التي ما إن أنهتها حتى خرجت لتجد أمها مشغولةً في تحضير وجبة الإفطار لها، فحدثتها قائلة:

- صباح الخير يا أمي.

- صباح النور يا حبيبتي، كيف حالك اليوم؟

- الحمد لله بخير، ولكني أشعر ببعض الإرهاق.

- حسناً، هيا ارتدي ملابسك فيما أحضر وجبة الفطور التي ستأخذينها معك إلى المدرسة.

وتدخل نور إلى غرفتها بمجرد إنهاء أمها جملتها كي تجلس أمام مرآتها، لتبدأ في تسريح وتجفيف شعرها الحريري الذي كانت تتساقط منه المياه كما تنسال

قطرات الندى على ورق الشجر، وقد كانت نور نسخة مصغرة من أمها، فقد ورثت عنها شعرها الأسود الحريري وعينيها الواسعتين ووجهها الممتلئ وفمها الصغير، ذلك بالإضافة إلى ملامحها الطفولية البريئة، إلا أنها زادت عنها بما ملكته من تلقائية وطيبة قلب حقيقية قد تصل في بعض الأحيان إلى حد السذاجة، وبراءة طبع من العجيب أن تنبت في تربة قوامها أمٌّ مثل أمها، التي أقرب ما تكون في وصفها إلى الحرباء أو الأفعى الناعمة، ولكن هكذا هي الحياة دائمًا ما تفاجئنا بعجائب الأمور.

لتنتهي سريعًا من تجهيز نفسها وكذا ارتداء ملابسها، كي تخرج إلى أمها وتودعها قبل أن تستقبل يومها

الدراسي الذي اعتبرته مجرد خطوة جديدة في سبيل تحقيق حلمها الأكبر، ألا وهو أن تصير طبيبة قادرة على علاج المرضى وأن تكون سببًا في شفاء آلامهم وأوجاعهم، ذاك الحلم الذي لم يكن صعبًا تحقيقه بالنسبة إلى فتاة دومًا ما شهد لها الجميع بذكائها الفطري وتفوقها الدراسي الملحوظ.

ويستيقظ حامد في اللحظة نفسها متثاقلًا، بخاصة في ظل سيطرة البرودة القارصة على طقس القبو، إذ ما كان لينهض بسببها لولا خوفه من تعنيف إحسان إياه، وهو ما دفعه إلى الإسراع بارتداء الثقيل من ملابسه قبل الانطلاق نحو عمله، كي يبدأ كعادته بتنظيف مقهى الإنترنت وتجهيزه لاستقبال العملاء اليومين، ثم الجلوس على مكتبه

طلبًا للراحة. إلا أن ذهنه ما كان ليفوِّت تلك الفرصة ويتركه هانئًا، فسرعان ما سحب عقله بأقصى قوة ثم ألقاه إلى أعماق ذكرياته مستغلًّا حالة الخلوة التي كست المكان، كي يتسلى به ومعه في مشاهدة ومعايشة واحدة من أسوأ ذكرياته.

***

بعد مرور أربعة سنوات على وفاة سعيد وبلوغ حامد العاشرة من عمره، ما عاد باستطاعته تحمُّل لحظة واحدة من معاملة زوجة خاله معه، إذ أقل ما يقال عنها أنها وصلت إلى حد الاضطهاد والإرهاب النفسي، وهو ما دفعه إلى التسلل في أحد الأيام من قبوه في غفلةٍ من شادو ومالكته،

•••

رغبةً منه في الهروب من ذاك المنزل الذي بمجرد تخطيه عتبة بابه أطلق ساقيه للريح بين الشوارع، التي ساقته في النهاية دون دراية منه إلى المكان الوحيد المخزن في ذاكرته بخلاف منزل خاله، ألا وهو ما كان في يوم من الأيام منزله ومنزل أبيه، متناسياً أنه قد لُفِظَ منه منذ قرابة الأربع أعوام.
لتفتح عبير بابه بعد وصوله إليه بعدة دقائق وتفاجأ به ملقى أمامه غارقًا في عرقه ومغشيًّا عليه، نتيجةً لما بذله من مجهود وما عاناه في الشهور والأعوام الماضية من إرهاق وضغط عصبي وسوء تغذية، وهو ما جعلها تحمله وتدخله إلى ما كانت يومًا غرفته، لتتمكن من إغلاق باب المنزل كي تحل

تلك المشكلة التي حلَّت عليها، إذ سرعان ما اتصلت بمنزل سعيد لترد عليها إحسان:

- ألو، منزل الأستاذة إحسان، من معي؟

فتبتسم عبير بسخرية من قول الأولى وغروها، لإدراكها التام أن ذلك المنزل الذي تنسبه إلى نفسها ما هو في الحقيقة إلا منزل حامد، ولكنها تغاضت عن ذلك كي تحدثها ملقية القنبلة المخزونة لديها على مسامعها من دون أي مقدمات:

- معكِ عبير أرملة محمود والد حامد، حامد عندي الآن وأريدك أن تأتي إليَّ حالًا.

لم تصدق إحسان في البداية ما وقع على مسامعها من قول عبير، إذ ما كانت لتتخيل أن يسعى حامد

في يومٍ من الأيام إلى الهرب من سيطرتها، وإلى من، إلى عبير التي سبق وأن تسببت في طرده من منزله. الأمر الذي جعلها تشرد قليلًا، ولكن ما كانت الأخيرة لتسمح لها بالانغماس في ذاك الشرود طويلًا، إذ سرعان ما عاجلتها بقولها:

- أنا في انتظارك في منزلي، وأظن أنك تعرفين الطريق جيدًا، أرجو أنْ لا تتأخري كي نتمكن من إنهاء هذا الأمر سريعًا.

- حسنًا، أنا قادمة.

ويضع طرفا المكالمة سماعتيهما في مرقدهما، فتسارع إحسان بتفقُّد حامد في المكان كي تتأكد من صحة قول عبير قبل أن تنطلق نحو منزلها، الذي لم

يستغرق وصولها إليه أكثر من بضع دقائق بسيارة أرملها التي ورثتها عنه، إذ فتحت لها وأدخلتها إلى الصالون. لتبدأ إحسان بالسؤال:

- أين حامد؟

- إنه نائم، ولكن قبل أن تأخذيه أريد أن أتحدث معك قليلًا.

إحسان بصوت مرتفع دون أن تجلس في الصالون تعبيرًا عن رفضها البقاء في تلك الشقة لما لها من ذكرى سيئة لديها:

- أما أنا فلا أريد التحدث معك أو الاستماع إليك، أخبريني أين حامد كي آخذه وأغادر من هذا المكان.

عبير بنبرة حاسمة ونظرة واثقة:

- اجلسي وأخفضي صوتك، فإن ابنتي نائمة ولا أريد لها أن تستيقظ في أثناء حديثنا. من الواضح أنك ليس لديك خبرة في التعامل مع الأطفال، فحامد الذي رأيته مغشيًّا عليه قُبيل اتصالي بكِ أمام باب الشقة مختلفٌ تمامًا عن ذاك الذي زارني في منزلي منذ عدة أعوام معكِ ومع زوجك الراحل، فهو اليوم يعاني من سوء تغذية وإرهاق شديد، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدل على طبيعة المعاملة التي يتلقاها منك بعد وفاة سعيد رحمة الله عليه، وحتى لا تسيئي الظن بي، فإني لا أعترض على تعاملك مع حامد، فلكِ مطلق الحرية في ذلك، المهم أن تتعلمي السيطرة عليه، فلا أريد لما

حدث اليوم أن يتكرر، ولا أريده أن يقترب من ابنتي أو يأتي إلى هنا مرة أخرى، هل كلامي واضح؟!

إحسان محدثة عبير بهدوء شديد يفيض من بين ثناياه السخرية والاستهجان:

- من تلك التي أسمعها تتحدث عن ضرورة حسن معاملة حامد؟! أنتِ يا عبير! ألست أنتِ من جعل ذلك الطفل يعيش طوال مدة حملك في جحيم مستعر بسبب ابنتك التي لم تكن قد زارت الدنيا بعد؟! سأقول لكِ كلمة واحدة وبعدها لن تريني أنا أو حامد مرة أخرى في حياتك أو حياة ابنتك، إياكِ أن ترتدي قناع الرحمة والرأفة أمامي مرة

أخرى، فإني أكثر الناس علمًا وإدراكًا بوجهك القبيح، والآن أخبريني أين هو كي أغادر به من هنا.

عبير دون أن تنهض من جلستها في محاولة منها لتصنع الهدوء منعًا لتفاقم الأمر داخل منزلها، على الرغم من ثوران بركان بداخلها:

- وأنتِ أيضًا يا إحسان، بالمناسبة وجهك الحقيقي لا يقل قذارة ولا وقاحة عن وجهي، فكلانا يعلم أن السبب الحقيقي وراء إبقائك عليه هو لامتلاكه نصيب الأسد فيه، بخاصة أنك لم تنجبي أحدًا يرث نصيب زوجك في منزله، وبالمناسبة كي لا تسيئي الظن بي، فإني لا أطمع أبدًا في مال حامد، وكل

ما أتمناه أن تبعديه عن حياتي وحياة ابنتي وحلال عليك ماله ومنزله، أما عن سؤالك فإجابته ستجدينها راقدة داخل تلك الغرفة.

لتشير بيدها بمجرد إنهاء جملتها تجاه إحدى غرف المنزل التي ما كاد يقع بصر إحسان عليها حتى انطلقت تجاهها كانطلاق اللبؤة نحو فريستها، فتنقض عليه موقظة إياه على نظرات عينيها اللتين كانتا تفيضان شررًا وسمومًا انسكبت على روحه وعقله بكل قوة بمجرد تلاقي بصريهما، كي تغرقه في موجات متصارعة من الرعب والفزع أعجزت لسانه عن الإتيان بأي حرف قادر على تهدئتها، قبل أن تسحبه إلى خارج الغرفة والمنزل بأكمله، بينما كانت عبير مستندة بظهرها إلى أحد الجدران

المقابلة للحجرة، تشاهد في صمت وعن كَثَب كل ما ترتكبه إحسان من إيذاء في حق حامد، الذي ما كادت تقع عيناه عليها حتى تفجرت منابع عقله بالأفكار وانهمرت شلالات عينيه بالدموع، ليصرخ لسانه بما يحويه قلبه الصغير بكل ما أوتي من قوة:

- ماما عبير، أنقذيني منها، أرجوكِ لا تدعيها تأخذني! لن أزعجكِ مرة أخرى، أرجوكِ لا تدعيها تأخذني معها! أرجوكِ لن تسمعي لي صوتًا أبدًا! كل ما أريده هو أن أعيش معكِ ومع أختي، لا تدعيها تأخذني أرجوكِ...

إلا أن إحسان ما كانت لتسمح له بالاستمرار في البكاء والعويل داخل ذاك المنزل أكثر من ذلك، إذ سرعان ما سحبته بكل ما امتلكت من قوة خارجه، ليغادراه إلى الأبد قبل أن تغلق عبير الباب خلفهما، في اللحظة نفسها التي فُتِحَ باب إحدى غرف الشقة وخرجت منها نور ذات الأربعة أعوام فزعة من نومها، وأخذت تتساءل وهي تمسح عينيها من أثر النعاس:

- أمي، ما الأمر؟ ما هذا الصراخ؟!

الأمر الذي دفع عبير إلى الهرع نحوها لطمأنتها قائلة:

- أبدًا يا حبيبتي، إنه ابن إحدى صديقاتي المشاغبين، وأؤكد لكِ أنه لن يزعجنا مرة أخرى، والآن ما رأيك في أن نعود إلى النوم مرة أخرى؟

وتحمل عبير ابنتها لإدخالها إلى غرفتها بمجرد إنهائها جملتها، كي تعيدها إلى سريرها مرة أخرى لتغط عيناها عميقًا في النوم، في الوقت نفسه الذي كانت عينا أخيها الأكبر تنزفان في صمت داخل سيارة أرملة خاله دمعًا ودمًا، حزنًا وخوفًا مما سيلاقيه على يديها عند وصولهما إلى منزلهما عقابًا له على فعلته. وبالفعل يبدو أن ظنه لم يخِبْ، فما كادا يصلان إلى عتبة المنزل حتى أنزلته بكل قوة كي تبدأ بإغراقه في جولة مطولة من الإذلال والتعنيف ختمتها بقولها:

- أتريد أن تهرب مني؟! اهرب، فلن أمنعك، الباب مفتوح أمامك، ولكن ضع في حسبانك جيدًا أنك إذا حاولت الهرب مجددًا فلن تدخل إلى هذا البيت مرة أخرى حتى ولو نهشت الكلاب لحمك أو قطَّعك قطاع الطرق إلى قطع صغيرة ووضعوك في أكياس بلاستيك. وأنت بنفسك رأيت بعينيك أنه ما عاد مخلوق يطيق وجودك في حياته، حتى أرملة أبيك التي كنت تناديها يومًا أمي، طردتك من منزلها شر طردة بمجرد رؤيتها وجهك القبيح. والآن لك القرار، إما أن تخرج مطرودًا من هذا المنزل أيضًا ولا تعود إليه مرة أخرى وتُتَرَك لكلاب الشوارع تنهش لحمك،

وإما تدخل ذلك القبو وتعيش فيه ما تبقى لك من أيام حسب ما وضعتُه لك من قواعد.

لتفتح إحسان باب منزله والقبو الملحق به على مصراعيهما بمجرد إتمامها جملتها، قبل أن تقف بينهما في انتظار قرار حامد، الذي لم يستطع أن يرفع رأسه عن الأرض في خلال حديث إحسان معه، وتمر عليهما دقائق طوال سادها الصمت الذي لم يستطع قطعه سوى تحرك حامد في ذل وانكسار لا مثيل لهما نحو قبو المنزل، معلناً عن قراره بقضاء ما تبقى من عمره داخل ذلك المكان وأنْ لا يحاول الهرب منه مرة أخرى ما دام حيًّا.

★★★

ويعود مرة أخرى إلى أرض الواقع بمجرد تحرره من تلك الذكرى الموجعة ليستيقظ على وجه أمل ذات الثمانية عشر عامًا، التي ما إن وقعت عيناه عليها حتى أشرق وجهه بالفرحة والسعادة قائلًا:

- أمل، كيف حالك؟

- الحمد لله بخير حال، كيف حالك يا حامد؟

- الحمد لله بخير.

- كنت أريد أن أستخدم أحد الأجهزة لمدة ساعتين، وأن تُحمِّل بعض الخلفيات وتلك النغمات والأغاني على هاتفي.

فتعطيه هاتفها وكذا قائمة الأغاني والنغمات التي ترغب بنقلها بمجرد إنهائها قولها، ليتسلمهما منها بكل سعادة وترحاب قائلًا:

- المكان كله تحت أمرك، اختاري الجهاز الذي تريدين وقبل أن تنتهي ستجدين كل ما تريدين وأكثر موجودًا على هاتفك.

وقد كانت أمل قصيرة نوعًا ما، تملك وجهًا ذا ملامح طفولية بريئة وقسمات صغيرة وابتسامة لا تفارقه تضيف إليه جمالًا فوق جماله وروعة فوق روعته، أما عن شعرها فقد اعتادت أن تستره عن أعين البشر بالحجاب الشرعي، ولكن من خلال بعض التدقيق في ملامح وجهها يمكن الاستدلال

على لونه من حاجبيها الأشقرين اللذين كانا بارزين للعِيان، وقد كانت أمل دائمًا ما تتعامل مع حامد برقة وطيبة بطريقة لم يعتد عليها طوال حياته، إذ اعتاد أن يعامله من حوله كحشرة أو جرثومة لا بد من القضاء عليها أو الابتعاد عنها في أفضل الأحوال، ذاك هو ما جعل قلبه ووجهه كلما وقعت عيناه عليها بشكل لا إرادي يغمران بالسعادة والبهجة، وهو أيضًا ما كان يدفعه إلى استراق نظرة بين الحين والآخر إلى وجهها في غفلة منها وهي منهمكة في العمل على الكمبيوتر، كي يعيش في تلك السعادة أطول مدة ممكنة، أو هكذا يظن. بينما أنها في الحقيقة كانت تدرك تمامًا نظراته تلك التي لم تسعَ قط إلى منعه أو صده عنها، إذ

كانت هي الأخرى تبادله المشاعر نفسها، فما كانت تذهب سوى إليه كي تنقل بعض البيانات أو تتصفح الكمبيوتر إلا لشعورها بالسعادة والفرحة كلما وقع بصرها عليه.

وينتهي يوم عمله ليرتد عائدًا إلى قبوه، الذي ما كاد يدلف إليه طلباً للراحة حتى أوقفته إحسان لسؤاله عن الإيراد اليومي، الذي بمجرد أن سلمها إياه حدثته بتعجب ممزوج بغلظة شديدة:

- ما هذا؟!

- ماذا؟

- ما هذ الإيراد القليل؟! هل كل يوم ستأتي إليَّ بمثل هذا الإيراد الحقير الذي لا يختلف عنك؟

حامد ساخرًا:

- وماذا أفعل؟! هل أقف مثل الباعة الجائلين وأنادي الزبائن كي يأتون إليَّ، أم أقف على باب المقهى وأخطف أي شخص يمر أمامي وأطلب منه فدية كي أتركه يخرج بسلام؟! أنا أعمل والله هو الرازق.

لتفاجئه بلطمةٍ خاطفةٍ على خده الأيمن بمجرد إتمامه جملته الساخرة، كادت أن تجعل فمه ينزف دمًا، تلتها على الفور بردٍ لم يقل عنفًا عن صفعتها، إذ قالت:

- أولًا، عندما تتحدث معي فلا تحدثني بهذه الطريقة. ثانيًا، بالنسبة إلى الإيراد فعندما تأتي إليَّ

به مرة أخرى يجب أنْ لا يكون بهذا الشكل. ماذا تفعل كي تأتي به فهذه مشكلتك وليست مشكلتي، ولتحمد ربك أني أجعلك تعمل في ذاك المكان الذي يأويك ولا يجعلك تتذلل إلى الأغراب، الذين في الأساس يستحقرون أن يتعاملوا مع شخص شؤم وجلاب للخراب مثلك.

وتدير جسدها عنه بمجرد إتمامها قولها، كي تتجه إلى منزله الذي استولت عليه، والذي ما إن تخطت عتبة صالة استقباله حتى أغلقت بابه في وجهه بكل قوة، تاركة إياه واقفًا أمامه عدة لحظات لم يجد فيها سوى الصمت ردًّا، بخاصة بعدما صارت عنده قناعة بصدق قولها، وهو ما دفعه إلى التوجه إلى ملجئه الذي أخرج من بين إحدى ثناياه

واحدة من الروايات التي صارت مطالعتها هي تسليته الوحيدة في ذاك المكان قبل أن يغلبه النوم. ليستيقظ في اليوم التالي وتُعاد الكرة مرة أخرى قبل أن يحل عليه منتصف النهار، فيصير ذهنه مهمومًا بعدم دخول أي عملاء إليه حتى اللحظة بالقدر الكافي الذي يضمن تحصيله إيرادًا يوميًّا يرضي إحسان ويكف آذاها عنه.

ويظل على حالته تلك حتى أفاق على ملامح صديقه وجاره مختار، الذي امتاز بطول قامته وعيناه السوداوان وكذا تعبيرات وجهه، التي كانت تشع بحالة فريدة مزجت ما بين الرهبة والهيبة التي دائمًا ما كانت سبب نجاحه في فرض حضوره على جميع من حوله. كان يكبره بعدة أعوام، ولذا دائمًا ما

كان يعتبره حامد بمثابة الأخ الأكبر وصديقه الناصح له في تلك الدنيا، بخاصة لما امتلكه من هواية ارتقت معه إلى مستوى الإدمان، ألا وهي الاطلاع على الكتب وبخاصة الفلسفية منها، إذ أكسبته وجهة نظر فريدة في الحياة، وقد عرف حامد بعد افتتاحه بازارًا خصصه لبيع التحف الفنية واللوحات الزيتية، وكلما وجد وقت فراغ في يومه اعتاد أن يقضيه مع حامد كي يتحدث معه في أمور الحياة، ليجد حامد على حالته تلك بمجرد دخوله عليه مما دفعه إلى سؤاله:

- حامد، كيف حالك؟ ما بك؟ أراك مهمومًا اليوم! هل أرملة خالك أزعجتك مرة أخرى؟

فيومئ حامد برأسه تأكيدًا على تخمين صديقه، قبل أن يبدأ في سرد ما حدث معه أمس، فيما تكاد تلمع عيناه من الدموع بسبب حزنه وقلة حيلته وإحساسه بالعجز. إلا أنه ما كاد ينهي حديثه مع صديقه حتى صمت مختار عدة لحظات قبل أن يقول:

- أرجو منك ألا تغضب من قولي، فأنت تعلم أنني اعتبرك في مقام أخي الصغير، ولكن مما ذكرت لي وما أراه في حياتك، فإني أراك مستسلمًا بشكل مبالغٍ فيه وهو ما يجعلك ضمن فئة المُدَمَّرون بامتياز.

- عفوًا، فئة ماذا؟

مختار مبتسمًا:

- اعذرني، إذ ينبغي لي بدايةً أن أشرح لك من هم المُدَمِّرون ومن هم المُدَمَّرون، وسأحاول في شرحي تبسيط المعنى لك بأكبر قدر ممكن، وأتمنى ألا تعتبر حديثي تحريضًا لك على أرملة خالك، ولكنها الحقيقة التي نعيشها ونعاني منها جميعًا. باختصار، إن سكان العالم ينقسمون إلى فئتين رئيستين، أو هكذا أراه، أُولاهما المُدَمِّرون، وهي الفئة الأكثر سيطرة في ذاك العالم المظلم، تراهم حولك في كل مكان، أشكالهم مثل البشر ولكنهم في الحقيقة أقرب في وصفهم إلى مصاصي الدماء، فمثلما كان يتغذى أتباع دراكولا على الدماء ولا يعيشون إلا بها، تجد هؤلاء يتغذون على ملء

قلوبهم بالحقد والحسد والضغينة على كل من حولهم، والخوض في أعراض غيرهم وتدمير أحلامهم، مستخدمين في ذلك قلوبهم المتحجرة وألسنتهم وأعينهم الشبيهة بالمخالب والأنياب لينقضوا بها على ضعاف البشر، فينهشون لحمهم ويدمرون حياتهم وآمالهم، شأنهم في ذلك شأن الضواري التي دائمًا ما نراها تنقض على أضعف أفراد القطيع كي تعيش على تناول لحومهم وشرب دمائهم. أما الفئة الثانية، المُدَمَّرون، فهُم الضحايا المفضلون للفئة الأولى، عادة ما تجدهم إما شديدي الضعف والسلبية أو شديدي الطيبة والسذاجة، لا يملكون أي أنياب في تلك الغابة المسماة بالحياة، وهو ما يجعلهم يتلقون الصفعات

تلو الصفعات في صمت ولا حيلة لهم لاستكمال أيامهم سوى تعاطيهم مسكنهم الوحيد، ألا وهو غرقهم في الأوهام والأحلام الوردية وتمنية أنفسهم بحياة أفضل في عالم آخر، فتجدهم دائمًا ما يتسابقون على اقتناء الروايات الخيالية والرومانسية أو مشاهدة الأفلام والمسلسلات التي ينتصر فيها الأبطال للخير على الشر، مُدَّعين أن سبب حبهم لاقتناء ومشاهدة تلك الأعمال هو حصد المتعة والتسلية، ولكن الحقيقة الأكبر التي لا يستطيعون الفرار منها أو حتى الاعتراف بها، أن السبب الرئيس وراء إدمانهم تلك الأعمال هو هروبهم من عالمهم المظلم والظالم الذي غرقوا فيه إلى عالم مشرق من اختيارهم، ولو لسويعات من الزمن،

وإذا لم يستطع أحد منهم الوصول إلى تلك الميديا اللاهية تجده ينسحب من الجميع، مفضلًا العزلة والوحدة كي لا يتلقى صفعة جديدة لا يستطيع إيجاد مسكن لها. ولذا نصيحتي لك كصديق مخلص، حاول أن تتخلى عن تلك الفئة الواهنة واسعّ إلى امتلاك أنيابك وأسلحتك الخاصة، كي لا تسمح لأحد بالانقضاض عليك ونهشك حيًّا مرة أخرى، لأن عالمنا لا يشفق على الضعفاء ولا يحترم إلا الأقوياء. والآن سأدعك لتكمل عملك كي لا أطيل عليك، ولأني أيضًا أحتاج إلى متابعة البازار الخاص بي، أراك على خير.

الفصل السادس

وتمر عدة أسابيع على حامد وهو على الحال نفسها، يقتصر يومه على عمله وقضاء ليله وإجازته داخل قبوه الذي ضم بين جنباته وسيلة تسليته الوحيدة، الكتب المتراكمة بداخله، التي كانت تهون عليه وجوده بذلك المنزل ورؤيته لإحسان، التي كلما شعرت أنه قد أتى إليها يومًا بإيراد أقل من المعتاد لا تتهاون في تسميم بدنه بأقذر وأسوأ الألفاظ

ومعايرته بأنها تَمُنّ عليه وتُحسِن إليه بسماحها أن يعمل في ماله.

ولكن وسط كل ذلك التلوث النفسي الذي كان يستنشقه على مدار يومه، كان هناك شريان وحيد ما يزال صالحاً للحياة، يتخلل جسده وروحه سامحًا له بالتنفس والاستمرارية في الحياة داخل تلك الدنيا القميئة. ذاك الشريان كان أمل، التي كانت بالنسبة إلى حامد أملًا حقيقيًّا أرسله الله إليه كي يستطيع استكمال حياته، فمع مرور الأيام بدأت المسافة بين الطرفين في التقلص بشكل لا إرادي، حتى صارا روحين ملتصقتين في جسدين منفصلين، لا يستطيع أحد منهما إكمال يومه دون رؤية الآخر وسماع صوته ومحادثته، وهو ما دفعها

في النهاية، وبخاصة في ظل خوف حامد من فقدانها إذا ما صارحها بمشاعره، إلى أن تعبر له عما يجول بداخلها تجاهه.

ليتحول ذلك اليوم العادي في حياته إلى واحدٍ من أسعد أيامه على الإطلاق، وكيف لا وقد اتخذت حياته منذ ذلك اليوم مسارًا لم يعهده منذ زمن بعيد، مسارًا عاد فيه قلبه إلى النبض بالفرحة مرة أخرى بعدما كاد ينسى ما تعنيه تلك الكلمة من معنى، مسارًا لم يعد مجبرًا على خوضه منفردًا كما اعتاد فيما مضى، بخاصة بعدما صار له رفيق وحبيب قادر على تهوين ما يلاقيه من مصاعب في تلك الدنيا، وكذا الاستمتاع بكل لحظة فرح قادر على اقتناصها.

لتتكرر اللقاءات بينهما في مقهى الإنترنت بشكل شبه يومي، فتارة يتبادلان أطراف الحديث حول ماضيهما المؤلم وحياتهما المأساوية وما عانياه فيها على صغر سنهما، وأخرى تتحدث أمل عن أختيها وأمها وأبيها وكيف أنعم الله عليهم بالمال في آخر عامين لتتحول حياتهم إلى أفضل مما كانت تتمنى، وتارة ثالثة حول أحلامهما المستقبلية وحياتهما التي يتمنيان أن يكملاها معًا. إلا أنه ما كاد يمر أسبوع على آخر لقاء لهما حتى اختفت لمدة شهر كامل، كان الأطول في حياة حامد على الإطلاق، خصيصًا بعدما اعتاد على إشباع بصرِه بالنظر إليها وسمعِه بصوتها العذب فتمتلئ روحه وقلبه بالفرحة ويصبرانه على مرارة حياته وآلامها، ولكن ما كان

يطمئنه ولو قليلًا هو تذكره الأيام التي كانا يجلسان فيها معًا كلما اشتاق إلى رؤيتها.

وفي أحد الأيام، وبينما كان حامد منهمكًا في عمله، ورَدَ إليه اتصال مفاجئ من زميله في العمل والمسؤول عن الدوام الليلي ليخبره بإصابته بشرخ في ذراعه الأيسر في حادثة مرورية، معتذرًا له عن عدم القدوم إلى العمل لمدة أسبوع وفقًا لتعليمات الطبيب ومستسمحًا إياه أن يتحمله في تلك الأيام كي لا يفقد وظيفته نتيجة إصابته. وعلى الرغم من محاولات حامد في التملص من ذلك الطلب، فإنه لم يجد في النهاية أمام رجاء زميله وإلحاحه سوى الموافقة على طلبه والتواصل مع إحسان لإخبارها بما اتفقا عليه.

•••

ويعود حامد في نهاية ذاك اليوم منهكًا حد الموت من شدة الإرهاق، إلى درجة جعلته ينسى تسليم الإيراد اليومي إلى إحسان كعادته، إذ توجه مباشرةً إلى ملجئه وقبوه طلباً للراحة بعد يوم طويل وشاق. ليستيقظ في صباح اليوم التالي في حالة غلبها النعاس والرغبة الشديدة في استكمال نومه، بعد طول عمله وسهره على غير العادة في الليلة الماضية، إلا أنه ما كاد يفيق من حالته تلك ويبدل ملابسه استعداداً لاستقبال يوم عمله الجديد، حتى تحسس جيوب سترته ليجد فيها إيراد اليوم السابق، وهو ما أصابه بحالة امتزج فيها الفزع بالتعجب. فكيف لإحسان التي دومًا ما سَمَّمتْ بدنه بأقذر الألفاظ فور أن تراه قادمًا إليها بإيراد أقل من

المعتاد، أن تصبر على قضاء ليلة كاملة في ظل ذلك الصقيع دون أن تدفئ نفسها بماله الذي سطت عليه منذ صغره؟! وما الذي منعها أن تتهجم عليه في قبوه طوال تلك الليلة، أو في أفضل الأحوال توقظه على صيحاتها وصراخها تاركة إياه يحظى بليلة هانئة؟! هل يمكن أن يكون قد رقَّ قلبها أخيرًا؟!

ليغادر حامد قبوه متجهًا صوب باب الاستقبال، طارقًا إياه رغبة منه في تسليم إحسان ما معه من مال، وكذا الحصول على إجابة مرضية له إن أمكن، ولكن على الرغم من توالي الطرقات، لم يجد مجيبًا له.

•••

في البداية ظن أنها ما زالت نائمة، وهو ما جعله يلتفت متجهًا إلى عمله كي لا يتسبب تأخره في غضبها، إلا أنه ما كاد يفعل ذلك حتى تسربت إلى أنفه رائحة غاز خفيفة، إذ تمكنت بعد عناء ونتيجةً لطرقاته المتتالية أن تتسلَّل بنجاحٍ من بين ثنايا الباب، وهو ما أصابه بالذعر، ليحاصر عقله عديدٌ من الأسئلة الجديدة التي لا تقل أهمية عن سابقتها. ما الذي يحدث في الداخل؟ هل إحسان بخير أم لا؟ ما سبب ذلك التسريب؟

كل تلك الأسئلة دفعت حامد إلى الطرق على باب المنزل بأقصى قوته، إلا أنه وجد جسده وبشكل لا إرادي قد توقف عن الاستمرار في الطرق، ليس رغبة في عدم دخوله، ولكن خوفًا ممن

شيَّدتْ بينه وبين منزله سورًا وحاجزًا منيعًا داخله قبل أن يكون على أرض الواقع، وهو ما دفعه في النهاية إلى الاتصال بشرطة النجدة لإبلاغهم بالوضع، فأتوا بعد عدة ساعات ليقتحموا المنزل ويكتشفوا أن مصدر ذلك التسريب هو أنبوبة الغاز، وأن إحسان قد فارقت الحياة، فتُنقَل جثتها إلى الطب الشرعي لتحديد سبب الوفاة، محمولةً على نقالة سيارة الإسعاف ومُكفَّنةً داخل كيس أسود. في الوقت نفسه الذي ظل حامد واقفًا أمام صالة الاستقبال يتابع خروجها من منزله على تلك الشاكلة، ليفاجأ بدمعتين صامتتين تسقطان من عينيه، لم يدرِ حينها هل سقطتا حزنًا على فراقها أم حزنًا على عمره وحياته التي ضاعت وتدمرت على

يديها، ويلتفت بعدها إلى يد أحد أمناء الشرطة تربّتِ على كتفه، ليخبره الأخير بضرورة حضوره إلى قسم الشرطة لأخذ أقواله وغلق التحقيق بخصوص الوفاة.

وهناك، تحديدًا أمام مكتب المقدم أسامة محمود، ضابط المباحث الجنائية في القسم، وقف حامد منتظرًا الإذن للسماح له بالدخول، لتمر عليه ساعات كالأعوام، سيطرت عليه فيها حالة من الذهول والصدمة الممزوجة بالرعب وارتفاع الأدرينالين إلى أقصى مستوياته، وكيف لا وقد وجد نفسه يغوص في عالم لم يسبق له حتى الاقتراب منه، ألا وهو عالم الجريمة والجثث، إذ ظل يفكر متسائلًا: «هل أنا حقًّا ملعون بلعنة

الموت؟! هل حقًّا كل من يقترب مني لا بد أن يتأذى أو يموت بأي طريقة؟!»، مستعرضًا في ذهنه ماضيه مع أمه وأبيه وخاله وصولًا إلى أرملة خاله التي توفيت صباح اليوم، وهو ما جعله يشعر في قرارة نفسه بأنه حقًّا شؤم ولعنة متحركة تصيب كل من يقترب منها، وهو ما كسا روحه وجسده في نهاية المطاف بحالة من الكآبة والحزن، ليس فقط على وفاة كل من مروا بحياته، بل على نفسه التي حُكِم عليها بالوحدة والدمار منذ أن خلق.

وبينما هو على حالته تلك، إذا بالمجند المكلف بحراسة المكتب يصرخ مناديًا اسمه موقظًا إياه من غيبوبته فيطفو من محيطه الذي كان غارقًا فيه، كي يعود إلى أرض الواقع مرة أخرى قبل أن

يدخل إلى مكتب المقدم الذي وقف أمامه عدة لحظات تأمل فيها كل منهما الآخر. وقد كان أسامة ضخم الجثة، عريض المنكبين، له كرشٌ متدلٍّ، يغطي وجهه شارب كث، يغزو مقدمة رأسه الصلع بشكل ملحوظ، له نبرة صوت غليظة وحزينة تجعل متلقيها يشعر بالهيبة من صاحبها والشفقة عليه في آنٍ واحد، لإحساسه بأنه يحمل هموم الدنيا جمعاء فوق كاهله.

أشار أسامة لحامد بالجلوس وبدأ في أخذ أقواله بشكل سريع ثم سمح له بالانصراف، إلا أنه ما كاد حامد يخرج من المكتب حتى أمر أسامة بإحضار أمين الشرطة الذي كلفه بضرورة وضع حامد تحت المراقبة لمدة أربعة وعشرين ساعة في

اليوم، كإجراء احترازي حتى صدور تقرير الطب الشرعي.

أما عن حامد، فبمجرد وصوله إلى منزله وتخطيه عتبته الخارجية، حاول دخول بابه وكسر ذاك الحاجز الذي منعه الاقتراب منه لمدة اقتربت من اثني عشر عامًا، ولكنه في النهاية وبعد محاولات مستميتة من السعي لتدمير ذلك الحاجز، فشل في تحقيق مبتغاه على الرغم من وفاة واضعة هذا الحكم الظالم عليه. ليستسلم في النهاية للجوء إلى ملجئه الاعتيادي (القبو) طلباً للراحة، بخاصة بعد مروره بذاك اليوم الشاق.

ليصدر بعد أسبوعٍ تقرير الطب الشرعي، الذي أفاد أن سبب وفاة إحسان هو الاختناق الناتج عن ارتفاع نسبة غاز البيوتان في الجو بسبب حدوث تسريب من أنبوبة الغاز في المنزل، ولا توجد أي شبهة جنائية في الحادثة، لتُغلق أوراق الملف إلى الأبد.

في الوقت الذي كان حامد قد نجح في العودة ولو بشكل نسبي إلى حياته الطبيعية، من خلال إعادة فتحه مقهى الإنترنت مدفوعًا برغبته في رؤية مصدر أمله وبهجته «أمل» مرة أخرى، التي أطلت عليه بعد شهر كامل من الانقطاع والابتعاد، ولكن هذه المرة بحالٍ غير الحال، إذ كانت منطفئةً بالكامل، مرتدية حلة من السواد،

التي على الرغم من تطريزها المبهج الذي قد يراه البعض مبالغًا فيه، فإنها كانت تفوح منها ولسببٍ ما رائحةُ الكآبة، ونظارة داكنة تكاد تخفي ملامحها إلى درجة أن حامد نفسه ما كان ليتعرف عليها لولا تحدثها معه قائلة:

- كيف حالك يا حامد؟

حامد مذهولًا:

- أمل! هل هذا أنتِ حقًّا؟! ماذا حدث لكِ؟ أين كنتِ طوال المدة الماضية؟ اجلسي، لماذا تقفين هكذا؟!

- اعذرني يا حامد ولكني جئت لتوديعك.

- توديعي؟! لماذا؟

أمل بعدما أخفَتْ يدها اليسرى استعدادًا للنطق بالجملة التي كانت أقرب في وصفها برمح اخترق روحه وقلبه، تنفيذًا لحكم الإعدام الذي أصدرته في حقه:

- لقد تقدم لخطبتي رجل منذ عدة أسابيع، هو جارنا، يعمل في الكويت، وقد تزوجتُه منذ يومين وسأسافر معه الأسبوع القادم، صحيح أنه يكبرني بعدة سنوات ولكن تلك ليست بالمشكلة العويصة. أرجوك يا حامد لا تغضب مني، لقد أحببتك ولكن الحب ليس كافيًا للحياة في هذا الزمان،

فهناك اعتبارات أشد أهمية وواقعية منه إذا أردنا لحياتنا الاستمرارية.

وتلتفت مغادرة المكان بمجرد إطلاقها قنبلتها الموقوتة، التي تسببت في وفاة جزء كاد يحيا بداخل قلب حامد وعقله في الأيام الماضية، تاركة إياه في حالة اختلط فيها الحزن على فقدان من كانت يومًا مصدر بهجته وأمله، بالوحدة التي كانت دومًا رفيقة حياته ورحلته، بالطمأنينة والسكينة لشعوره بأن أمل على الرغم من فراقها له فإنها صارت الآن بمأمن من لعنته التي أصبح مقتنعًا بشكل تام بوجودها.

وللحق، فإن تقدم العريس إلى أمل واتفاقه على الارتباط بها لم يكن منذ عدة أسابيع، كما ذكرت، ولكن قبل ذلك بكثير، فمنذ عامين كانت أمل بالكاد قد تجاوزت ستة عشر عامًا، وفي أثناء عودتها إلى منزلها وقعت عينا أحد الجيران عليها، كان ذلك الشخص هو ناجح، الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ثمانية وأربعين عامًا، والذي دومًا ما عُرِف بشهوانيته ودهائه وخبثه وإصراره على تحقيق أهدافه، عمل في الكويت منذ ما يقارب خمسة وعشرين عامًا، وهو ما ساعده على تحقيق ثروة مادية أعانته على الحياة بشكل كريم في منطقته وكذا في غربته. وقد رأى ناجح في أمل في تلك اللحظة مشروع امرأة ناضجة وثمرة طازجة وجب

حجزها لضمان حصادها والتهامها، وهو ما دفعه إلى مقابلة والدها جَمَال، وهو رجل أربعيني يعمل بائعًا متجولًا في الميادين العامة، عُرِف عنه جشعه وعشقه للمال واستعداده لبيع أي شيءٍ في مقابله، لذا فقد قرر ناجح أن يعقد معه الصفقة التي طرأت في ذهنه وألحت على جسده وشهوته وحدثه بمجرد مقابلته قائلًا:

- أبا أمل، كيف حالك؟

- الحاج جمال، الحمد لله بخير حال، كيف حالك أنت؟

- كنت أرغب في الجلوس والحديث معك اليوم في موضوع مهم.

•••

- تحت أمرك بكل تأكيد، متى تريد أن نجلس معًا؟

- اليوم في الساعة السابعة مساءً بإذن الله، ولكن ليس هنا كي نستطيع الحديث من دون أي إزعاج من أحد، فأنت تعلم إن الناس هنا لا تكف عن الحديث والخوض في سيرة كل من تطاله ألسنتهم.

جمال بقلق:

- ما الأمر؟ هل هناك مشكلة؟

- لا تقلق، كل خير بإذن الله، المهم، هل يناسبك الميعاد؟

- حتى لو لم يناسبني، سأفرغ نفسي لمقابلتك.

•••

- إذًا على ميعادنا.

وفي المساء التقى الاثنان وجلسا في أحد المقاهي المنتشرة على شاطئ البحر، ليبدأ ناجح بالحديث بعد أن استراحا قائلًا:

- باختصار ومن دون أي مقدمات، كنت أريد مصاهرتك.

شعر جمال بإحساس امتزجت فيه الفرحة بالدهشة، وكيف لا وهو بإتمام تلك المصاهرة ستُفتَح له بوابة أموال ناجح التي طالما سمع عنها، ولكن في اللحظة نفسها كان يتردد في ذهنه سؤال لم يجد له إجابه، وهو ما أثار دهشته ودفعه إلى أن يسأله:

- هذا شرف لنا لا نستحقه! ولكن مَن الذي تريده أن يصاهرني وفيمَن؟

ناجح بصرامة واضحة:

- في أمل ابنتك، فقد صارت عروسًا ما شاء الله، أما عن العريس فهو أنا بكل تأكيد.

ليُصعَق الأخير من الرد فيخرس لسانه من الصدمة التي لم تسعفه سوى بالرد بكلمة واحدة:

- لكن...

- لكن ماذا؟! هل تراني زوجًا غير مناسب لا أستحق الارتباط بابنتك؟!

جمال بعد أن غطت وجهه تعابير اختلط فيها الفزع بالإحراج:

- بالطبع لا، فقد قلت لك سابقًا إن نسبي بك شرفٌ لا أستحقه، ولكن...

- هل تقصد فرق السن؟! وما المشكلة؟! فأنت تعلم أن الرجل منا لا يعيبه سنه وإنما يعيبه اثنين لا ثالث لهما، أولهما جيبه وماله وقدرته على الإنفاق على منزله، وثانيهما أنت تعرفه جيدًا، وأنا والحمد لله رجل وأملك من المال ما يجعل ابنتك تعيش ملكةً في منزلها، وبالنسبة إلى أمل فأي مهر تطلبه لها اعتبره في جيبك، وكي أريحك أكثر، فإني

سأتحمل تجهيزها بالكامل دون أن تدفع مليمًا واحدًا. فما قولك؟ هل ما زلت مترددًا؟!

لم يصدق جمال أذنيه وما سمعه على الفور من قول، فهل سيتخلص حقًّا من عبء تجهيز ابنته وعلاوة على ذلك سيقبض في يده ما يكفيه من أموال؟! ليجيبه بكل عفوية وتلقائية:

- وهل يوجد قولٌ بعد قولك، بالطبع موافق!

- إذًا نقرأ الفاتحة؟

- هيا بنا، ولكن قبل قراءة الفاتحة لي طلبين عندك، أرجو أنْ لا ترفضهما.

- ما هما؟

- الأول، أنت تعلم أن أمل تجاوزت السادسة عشرة بعدة أسابيع فقط، أي إنها تحت السن القانوني للزواج، فهل من الممكن أنْ لا يتم الارتباط بشكل كامل إلا بعد إتمامها الثامنة عشرة؟ أما الثاني، فهو رجاء أكثر منه طلبًا، فإني أرجو أن يظل هذا الأمر سرًّا بيننا حتى تمامه، فأنت بنفسك قلتها قبل أن نجتمع هنا، الناس لا تكف عن الحديث في سيرة كل من تطاله ألسنتهم.

ليصمت ناجح في تلك اللحظة متصنعًا التردد في الرد والاستغراق في التفكير، ولكنه في الحقيقة كان يتابع بدقة تعبيرات وجه جمال الذي ظل ينظر إليه بكل لهفة خوفًا من ضياع تلك الفرصة من بين

يديه، إذ اعتبرها بمثابة طوق النجاة لانتشاله هو وأهله من قذارة تلك الحياة.

وتمر بضع دقائق على تلك الحال، حتى اعتدل ناجح في جلسته قبل أن ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة رد بعدها بقوله:

- لا توجد مشكلة يا أبا أمل، فالمصلحة واحدة، وأنا لا يسرني بالتأكيد أن يتحدث أحد أيًّا كان عنكم بسوء، فنحن سنكون أهلًا، وما يمسكم يمسني، فهل نقرأ الفاتحة الآن؟

- هيا بنا.

ليقرأ الطرفان الفاتحة على إتمام الاتفاق، أو الصفقة إن صح التعبير، قبل أن يغادرا المقهى كلٌّ منهما في

اتجاه، وترتسم على وجهيهما ابتسامة اختلف معناها من أحدهما عن الآخر. أما عن جمال، فقد كانت ابتسامته تعبيرًا عن فرحته بإتمام الصفقة وإزاحة هم تجهيز ابنته الكبرى من حساباته، وفوق ذلك صار بإمكانه أن يغتنم من أموال ناجح ما يشاء بحكم مصاهرته، لينام في تلك الليلة قرير العين مرتاح البال حالمًا بأنهار الأموال التي سيبحر فيها ويغترف منها ما يشاء بسبب تلك الزيجة. وأما ناجح، فكانت ابتسامته هي ابتسامة خبث، لإدراكه أن جلسته اليوم ما كانت في حقيقتها إلا مجرد طُعم أُلقي في حِجر جمال وجشعه، وأن كل ما عليه الآن هو الصبر والانتظار حتى تبتلع فريسته طُعمه لتقع في

مصيدته التي نصبها له، كي يغتنم ابنته منه ويستمتع بها قدر ما يشاء بأقل مقابل مادي ممكن.

وبالفعل كان ظن ناجح في محله، فما كادت تمر عدة أيام حتى طلب منه جمال الجلوس معه في المقهى نفسه الذي تقابلا فيه سابقًا لمحادثته في أمر مهم، فالتقى الاثنان في اليوم ذاته مساءً، وبدأ ناجح بسؤاله قائلًا:

- ما الأمر يا أبا أمل؟ هل هناك شيء؟

جمال محاولًا تصنع الإحراج:

- الحقيقة يا حاج ناجح أنا لا أعرف من أين أبدأ، فأنا أشعر بحرج شديد منك.

- هاتِ ما عندك يا حاج جمال، لا يوجد بيننا إحراج فنحن سنصير أهلًا، هل تحتاج إلى بعض المال؟

ويضع ناجح يديه في جيبه استعدادًا لإخراج ما فيه، لولا أن منعه الآخر قائلًا:

- لا لا، الحمد لله، لست بحاجة إلى أي مال، في الحقيقة لدي موضوع آخر.

- ما الأمر يا أبا أمل؟! تحدث، فصمتك ذلك لا يطمئنني إطلاقًا.

جمال بخبث مكشوف:

- بالتأكيد أنت تعلم أنني أعمل بائعًا متجولًا، وفي الحقيقة إني قد تعبت من تلك المهنة، خصوصًا بسبب ما أعانيه فيها من مطاردات شبه يومية من رجال الحي والشرطة، كما لو كنت بائع ممنوعات وليس بائعًا متجولًا، وأنت بالتأكيد لا يرضيك أن يعاني أبو زوجتك بهذا الشكل، أليس كذلك؟

ناجح ساخرًا:

- أجل بكل تأكيد، ولكنك نسيت نقطة مهمة، أمل ليست زوجتي في الوقت الحالي.

جمال بجدية وصرامة:

- ستكون زوجتك بإذن الله، فقد اتفقنا وانتهى الأمر.

•••

- حسنًا، ما هو المطلوب؟

- أمس وأنا عائد إلى المنزل، رأيت بالصدفة محلًّا تبلغ مساحته خمسين مترًا في أول الشارع وسعره ممتاز، فما رأيك أن نأخذه وأتولى أنا تشغيله؟ وبذلك تستثمر أموالك وتساعدني في أن أرتاح من الركض في الشوارع، إذ صرت كبيرًا عليه.

- حسنًا، كم تملك من أموال؟

- الحقيقة هذا هو طلبي، فأنا لا أملك أي أموال لشرائه، ولذا كنت أحتاج إلى مساعدتك في أن نكون شركاء في ذاك المكان، أنت بالمال وأنا بالإدارة، بخاصة أنك في أغلب العام لا تكون هنا،

وبالتأكيد لن تجد أحدًا أمينًا على إدارة مالك أكثر من والد زوجتك، أليس كذلك؟

عندها لمعت عينا ناجح لتأكده أن جمال بجشعه وطمعه قد ابتلع الطعم بأسرع مما كان يتخيل، وبثمنٍ أحقر وأرخص مما كان يتوقع، وهو ما جعله يضع إحدى قدميه على الأخرى تعبيرًا عن سيطرته على مجريات الأمور، قبل أن يبدأ في مفاوضته سعياً إلى الخروج بأكبر المكاسب الممكنة، بخاصة بعدما صارت الكرة في ملعبه، ليحدثه قائلًا:

- دعنا نتفق مبدئيًّا يا حاج جمال على عدة نقاط، أولًا أمل ليست زوجتي بعد كي أضع مالي في عمل لا أفقه فيه شيئًا، فقط لأن من سيدير ذلك

العمل هو حماي المستقبلي، ولكن لأنني رجل، وكما نشأت وتربيت فكلمة الرجل بمليون عقد وعهد، فأنا أعتبر منذ اللحظة التي قرأنا فيها الفاتحة أن أمل صارت في حكم زوجتي وأننا صرنا أهلًا، وما نتحدث عنه الآن هو عمل، والعمل كي ينجح لا بد أنْ لا تدخل فيه القرابة أو النسب.

في تلك اللحظات كان جمال جالسًا أمامه مثل الطفل الصغير، يتصبب عرقًا مع سماعه كل كلمة ينطق بها ناجح، خوفًا من أن يختم حديثه برفض اقتراحه أو ما هو أسوأ، في حين كان ناجح يتعمد كل حرف ينطقه كي يُنضِج ضحيته على نار هادئة لتقبل اقتراحه الذي أدلى به بعدما استكمل حديثه:

- ولكن كي لا تفهمني خطأً، فإنني موافق على طلبك.

عندها تنفس جمال الصعداء حامدًا ربه على أن حلمه قد تحقق، ولكن ما كان ناجح ليترك تلك الفرصة تمر من بين يديه، إذ طرق على الحديد وهو ساخن بقوله:

- إلا أن عندي اقتراح وشرط، وبالطبع لك حرية القبول أو الرفض، بالنسبة إلى المكان فإني أملك واحدًا تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف ذاك المحل الذي تتحدث عنه وموقعه كذلك أفضل منه بكثير، هذا بالنسبة إلى الاقتراح، أما عن الشرط فهو كالآتي، سابقًا قلتُ لك إني على استعداد لدفع ما

تطلبه من مال مهرًا لأمل، وأنا ما زلت عند كلمتي ولكن مع تعديل بسيط، مهر أمل لن يكون مالًا وإنما سيكون تجهيز ذاك المكان الذي ستديره، والذي أظن أنه سيكون أكبر من أي مهر كنت ستطلبه لها، أما عن فرش المحل بالبضائع فلا مانع عندي فيه، ولكن مقابل كل قرش سأنفقه تحت هذا البند فإن عليك إمضاء إيصالات أمانة به، سواء لي في حضوري أو لأخي في أوقات سفري، إذ إنه من سيتابع معك إدارة المكان في أثناء غيابي، وبالنسبة إلى الأرباح فسيكون ثلثها لك وثلثاها لي، هذا هو عرضي وآخر كلام عندي بخصوص هذا الشأن، وإما أن تقبله أو ترفضه.

- إيصالات أمانة! ألا تثق بي؟!

- الموضوع ليس له علاقة بالثقة، فكما قلت لك في بداية حديثي، ذاك عمل والعمل لا يوجد فيه نسب أو قرابة، فما هو ردك؟

صدم جمال من رد ناجح، إذ صوَّر له جشعه وطمعه أن ناجح ساذج إلى درجة أن يفتح له حسابات أمواله من دون رقيب أو حسيب، وهو ما جعل لسانه ملجومًا وعقله مشلولًا، ولكن بعد دقائق سادها الصمت نطق جمال أخيرًا، مدفوعًا بجشعه وخوفه من ضياع تلك الفرصة من بين يديه أو ربما ما هو أسوأ منها، قائلًا:

- موافق، متى سنبدأ؟

- في الوقت الذي تحدده.

وتتم الصفقة التي كان الفائز الأكبر فيها هو ناجح، وكيف لا وقد استثمر ماله في مكانه الخاص وصار جمال وعائلته بالكامل تحت ضرسه، بما امتلكه من إيصالات أمانة عليه، وفوق كل ذلك فاز بجسد فتاة في عمر أبنائه -إن لم يكن أحفاده- سيستمتع به كيفما شاء.

أما عن جمال، فبعد افتتاح المحل وإتمام الشق الأول من الصفقة، بدأت حالته المادية في التحسن شيئًا فشيئًا، ليتحول من مجرد بائع متجول مُطارَد إلى تاجر يدير محلًّا تجاريًّا، وكذلك توقفت زوجته عن عملها في خدمة المنازل، ليتذوقوا أخيرًا ولأول مرة طعم الراحة بعدما تجرَّعوا لأعوام

وأعوام كؤوسًا لا تنتهي من المرارة والألم الممزوج بالفقر والقهر.

وتمر الأيام تلو الأيام، ليحل أخيرًا يوم السداد والحصاد، فما إن قابل ناجح أبا أمل حتى حدثه قائلًا:

- طمئني يا حاج جمال، هل هناك أخبار جديدة؟

- أي أخبار تقصد؟!

- أخبار أمل بكل تأكيد.

- في الحقيقة ليس بعد، ولكن لا تقلق، أنا فقط في انتظار اللحظة المناسبة.

ناجح بعد أن ارتسمت على وجهه علامات الغضب:

- لا يوجد وقت لدي فقد صبرت بما فيه الكفاية، أمامك أسبوعان من الآن لتكون قد حدثتها وجعلتها توافق حتى تسافر معي في نهاية إجازتي، إما ذلك وإما أنت تعرف ماذا يمكن أن يحدث!

جمال بجدية مبالغة:

- لا يوجد داعي لذاك التهديد، فأنت قد اتفقت مع رجل والرجل يحترم كلمته، وكما قلت لك سابقًا، أمل لن تكون لأحد غيرك، وبإذن الله قبل المدة التي حددتها ستكون زوجتك.

لينهي يومه في العمل ثم يعود إلى منزله، ذاك المنزل الذي كان قديمًا تزين جدرانه لوحات فنية قوامها الرطوبة التي نهشت ما عليه من طلاء، ومحلاة

بشقوق عميقة تكفي لمرور الأفاعي بداخلها بكل أريحية، أما الآن فصار مَكسُوًّا بأحدث صيحات الألوان. لينادي أمل وأمها بمجرد تخطيه عتبته كي يجلس ويتشاور معهما في أمر مهم، وحين اجتمعتا حوله بدأ يحدثهما قائلًا والابتسامة تعلو محياه:

- ما شاء الله يا أمل، لقد كبرتِ وأصبحتِ عروسًا يتهافت العرسان إلى بابها لخطبتها، اليوم أتى إليَّ عريس يريد التقدم إليك، لذا أريد أن أعرف رأيك.

نظرت كلٌّ من أمل وأمها بعضهما إلى بعض في اللحظة نفسها، لتسأله الأخيرة بعفوية وابتسامة تلقائية:

- ومن يكون ذاك العريس يا أبا أمل؟

- ناجح جارنا.

فيقع الاسم على الاثنتين كالصاعقة الهابطة على قمم الجبال، وهو ما دفع الأم إلى إكمال جملة تساؤلاتها:

- ناجح من؟ تقصد الحاج ناجح شريكك في العمل؟!

- أجل.

ليستكمل جمال قوله محدثًا ابنته:

- ما رأيك يا عروس؟

أمل محاولة الإفاقة من أثر الصدمة والسيطرة على رد فعلها الذي جمع ما بين الدهشة والانفعال والرفض والغضب:

- الأمر لا يحتاج إلى تفكير أو رأي يا أبي، بالتأكيد غير موافقة! هل تريد أن تزوجني بشخص في مثل عمرك، إن لم يكن في عمر أجدادي؟! اعذرني يا أبي فإني مضطرة إلى عدم استكمال الجلوس معكما لأني مرهقة من العمل في المنزل طوال اليوم وأريد النوم، أما عن ردي على سؤالك فقد أجبتك عنه.

لتنهض عن جلستها بمجرد إنهائها كلمتها، تاركة خلفها أباها يستشيط غضباً، فيهمُّ بتعنيفها على ردها ذاك

لولا أن منعته زوجته التي لم تفق من حالة الدهشة وعدم الاستيعاب إذ حدثته قائلة:

- اجلس يا أبا أمل واترك البنت الآن، وأنا سأجلس معها في وقتٍ لاحق.

جمال بتعابير ملؤها الغضب:

- أفهم من ذلك أنكِ موافقة على ما فعلته ابنتك؟!

- بالتأكيد لا، ولكن من حقي أيضًا أن أفهم، ناجح؟! هل أنت مدرك لفارق السن بينهما؟!

- وما به ناجح؟! رجل يملك من المال ما يمكنه أن يزنك أنتِ وكل بناتك، وأولهن تلك المتكبرة التي ترفضه بكل عنجهية، في الوقت الذي تتمنى مليون

من مثيلاتها أن ينظر إليهن فقط بعين العطف والإحسان.

- إذًا فليتقدم لمن يشاء، ولكن ليس ابنتي.

- كما تشائين، ولكن اعلمي أنكِ بقرارك هذا أنتِ وابنتك ستكونان قد حكمتما علينا جميعًا بالدمار.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن السبب الرئيس وراء شراكة ناجح معي في المحل هو رغبته في ابنتك، وأن رغبته تلك هي السبب في أن أرتاح من مطاردة رجال الحي لي كل يوم، وهي السبب في أن تصيري سيدة في منزلك بعدما كنتِ خادمةً في منازل الغير، وهي السبب في أن تكمل ابنتك التي بالداخل تعليمها

معززة مكرمة بعد أن كنت سأخرجها منه توفيرًا لنفقاته، وهي السبب في أن يتحول منزلنا ذاك الذي كاد ينهار فوق رؤوسنا وكانت الرطوبة والشقوق تنهش كل جدار فيه إلى منزل من الممكن أن يعيش فيه بنو آدم. أيكفيكِ ما قلت أم تريدين مزيدًا؟!

فتصمت الأم لعدم إيجادها قولًا ترد به على قول زوجها، الذي لم يُمهِل زوجته الفرصة للرد إذ همَّ بمغادرة المنزل، ولكن قبل المغادرة التفت لزوجته ليكمل حديثه معها قائلًا:

- واعلمي جيدًا أن ابنتك إذا رفضت تلك الزيجة فسوف أُسجَن، لأني قد مضيت له سابقًا على

إيصالات أمانة بآلاف الجنيهات قبل بدء شراكتنا، وبالتأكيد في حال رفض ابنتك له فإنه لن يتهاون في تدميرنا وسحق حياتنا، ووقتها أنتِ وبناتك سوف تتشرَّدن في الشوارع ولن تجدن من يقف بجواركن أو يحميكن، ولذا ومن أجل مصلحتنا جميعًا، اجلسي معها واجعليها توافق، لأنه لا يوجد أمامنا خيار آخر غير ذلك.

ويخرج من منزله بمجرد إنهائه كلمته الأخيرة، ليغلق بابه تاركًا خلفه سيولًا من الدموع تنهمر في كل ركن من أركانه، كلٌّ لأسبابه الخاصة، فالأم لتذكرها أسود أيام خدمتها في المنازل التي طالما سعت لدفنها ونسيانها، وأمل لرفضها فكرة أن تكون لأحد غير حامد الذي أحبته من كل قلبها وقلة

حيلتها في تحقيق رغبتها، بخاصة بعد ما سمعته من إصرار والدها على تزويجها ناجح ومعرفتها أنه هو مَن وراء الراحة والحياة الآدمية التي ذاقتها هي وأهلها مقارنةً بحياتهم الماضية، أما إخوتها الصغار فإما خوفًا من صوت أبيهم الغاضب وإما تعاطفًا مع أمهم.

ويظل الأمر على تلك الحال لعدة دقائق مرت على الجميع كالدهر، حسمت الأم أمرها في خلالها واتخذت قرارها لتُكفكِف دمعها قبل أن تنهض لمحادثة ابنتها، التي ما إن دخلت عليها غرفتها حتى مسحت هي الأخرى دموعها وارتمت في حضنها، إلا أن الأولى منعتها بقسوة غير معهودة لتسألها بكل صرامة:

•••

- لماذا لا تريدين الزواج بناجح؟

أمل مصدومة من قول أمها ورد فعلها:

- هل تمزحين معي؟! إنه شخص في عمر أبي إن لم يكن في عمر جدي، ألا يكفيكِ ذلك السبب؟!

- وما المشكلة؟! الرجل لا يعيبه سنه، وإنما يعيبه نقص ماله وجيبه، أكبر منك ويجعلك تعيشين سيدة في منزلك لهو أفضل بكثير من شخصٍ في مثل عمرك أو حتى يقاربه ويجعلك تخدمين في بيوت الناس.

- ولكني لا أحبه!

•••

- يا ابنتي، إن الحب لا يملأ المِعَد الخاوية ولا الأفواه الجائعة، إن الحب نوع من الرفاهية ليس لأمثالنا نصيب فيها، لا تنظري إلى نفسك الآن فأنتِ تعيشين في الوقت الحالي في نعيم مقارنة بما شهدته أنا وأبيكِ في الأعوام الماضية، وبالمناسبة لقد أحببت أباكِ ولكن حبي له لم يحمِني من تلك الدنيا، فحياتي معه وهو فقير الحال دفعتني إلى العمل خادمة في المنازل وتحمُّل كمٍّ من الإهانات لا تطيقه الجبال. أريدك أن تعلمي أن رفضك الزواج بناجح ليس خيارًا مطروحًا أمامك، لأنكِ في تلك الحالة ستتسببين في سَجن أبيكِ وتشريدي أنا وإخوتك وتدمير حياتنا بالكامل.

أمل بيأس بينما تتساقط الدموع من عينيها:

- إذًا باختصار، كي تنجوا جميعًا ولا تُدمر حياتكم فقد عقدتم العزم على بيعي لناجح دون حتى أن يكون لي رأي في حياتي، أليس هذا ما تريدين قوله؟!

الأم بابتسامة مصطنعة حاولت بها إخفاء حزنها:

- يبدو أنكِ لم تفهمي حديثي بعد يا ابنتي، إن أمثالنا ليس لهم ثمن من الأساس كي يُباعوا ويُشتَروا، فنحن مجرد كائنات تعيش على هامش الحياة دون أن يدري بوجودها أحد، ولذا فبدلًا من أن تبكي على بيعك لناجح كما تقولين، احمدي ربكِ أنك وجدتِ من يقيم لكِ ثمنًا يشتريكِ به ويجعلك تعيشين معه هانئًا في منزلك وليس خادمة

في منازل الغير، وسيسمح لأهلك أن يعيشوا حياة آدمية بعدما كانوا يُنهَشون من كلاب السكك.

وتهمُّ الأم بالنهوض من جلستها بمجرد إنهائها كلمتها متجهةً صوب باب الغرفة الذي ما إن وصلت إليه حتى أكملت حديثها قائلة دون أن تلتفت لها:

- اجلسي مع نفسك وتقبَّلي الأمر، فقد صار واقعًا أمام الجميع لا مفر منه.

وتغلق باب غرفتها خلفها بعد آخر كلمة نطقتها، تاركةً إياها غارقةً في دموعها وهمومها وواقعها المكسو باليأس والعجز، ولا عزاءَ لها في فعلتها سوى إقناعها نفسها بأنها بذلك التصرف قد ضمنت لابنتها حياةً كريمةً لم تنلها هي في شبابها. ويتم عقد

قرانها بعد عدة أيام في جو اختلطت فيه الفرحة بالحزن والسعادة بالقهر ودموع الفرح بدموع الألم.

***

ويظل حامد حبيسَ حالةٍ من الحزن كسَتْ ملامحه كلها منذ خروج أمل من مقهى الإنترنت ومن حياته إلى الأبد، وحتى دخول مختار عليه، الذي عندما وجده على تلك الحالة سأله عن سبب حزنه وصمته موقظًا إياه من شروده الذي كساه، ليبدأ حامد بسرد كل ما مر به بدايةً من وفاة أرملة خاله وصولًا إلى خروج أمل من حياته إلى الأبد.

فيحدثه مختار بهدوء وجدية لم يعهدها منه حامد من قبل:

- هل انتهيت؟

- أجل.

- في الحقيقة، إنني كنت أتابع علاقتكما طوال المدة الماضية، ولم أرغب أن أتدخل، ولكن ماذا كنت تتوقع أن يحدث؟! أن تنتهي قصتك معها نهايةً سعيدةً وتعيشان في تباتٍ ونباتٍ؟! إن هذا لا يحدث إلا في الروايات يا صديقي، فمرحبًا بك في العالم الحقيقي! العالم الذي يمارس الجميع فيه العُهر بشتى أشكاله وأنواعه، ولكن منعًا للتقزز يطلقون عليه مسمياتٍ ألطف وأرق كي يستطيعوا التعايش مع واقعهم القذر.

- عفواً، ماذا تقصد بكلامك؟

- إن الشرف لا يتجزأ يا صديقي، فهو ليس قطعة الجلد تلك التي تُنتَهك في الحرام، إن معنى الشرف أعم وأشمل من ذلك بكثير، فكلهم داعرون بشكل من الأشكال، ولا أستثني منهم إلا من رحم ربي وهم قلة نادرة قد لا تتعدى الواحد من المليون في المئة. ولنبدأ بمنظومة الزواج، ولا أخص في حديثي تلك التي حدثتني عنها، لكني سأتحدث بشكل عام، فمع الأسف كثير من الفتيات والأهالي في تلك الأيام تناسوا عن قصد أو دون قصد أن أساس الزواج والارتباط هو المودة والرحمة، فالفتيات صرن في الغالب يتعاملن مع أنفسهن وأجسادهن أنها سلعة لا بد أن يُدفَع فيها كل غالٍ ونفيسٍ حتى يتذوقها من يستحقها، أما

الأهل فصار كثير منهم يؤدون وباقتدارٍ دور القواد الذي يتفاوض مع الزوج، أو المشتري إن صح التعبير، بصفتهم المسؤولين عن الصفقة، عفواً أقصد الزواج، فيفرضون في سبيل إتمامها شروطًا تعجيزية على المتقدم لهم بحجة تأمين مستقبل ابنتهم، وهو ما يضع الشاب أمام خيارين لا ثالث لهما، إما ترك الفتاة لأهلها باحثًا عن غيرها لتنضم هي في الغالب إلى طابور العانسات الممتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وإما تتم الصفقة، وفي تلك الحالة غالباً ما يتناسى الزوج كل ما عليه من واجبات تجاه زوجته، لشعوره في قرارة نفسه -حتى لو لم يصرح بذلك- أن المرأة التي تشاركه منزله هي ليست زوجته، بل مجرد جارية

اشتراها من سوق الرقيق بماله وكَدِّه وتعبه ومن حقه الاستمتاع بها واستهلاكها كيفما شاء دون أن يحق لها أو لأهلها الشكوى من أيٍّ من أفعاله التي سيرتكبها في حقها، لأنهم في الأساس لم يرحموه وقت أن تقدم لهم. وهو ما لم تحسب له هي أو أهلها أي حساب، أقصد رد فعل الزوج بعد الزواج، لتصبح بذلك مُخيَّرة بالسير قدمًا في إحدى الطرق التي مهدت أصولها عبر زواجها بتلك الطريقة، فإما تلجأ إلى خيانة زوجها بأي شكل من الأشكال، مبررة لنفسها أن ما تفعله في حق نفسها وزوجها ما هو إلا مجرد مسكنات تساعدها على تحمل حياتها المأساوية معه، وإما الانفصال،

وإما تحمل حياة أقرب في وصفها إلى الجحيم من الحياة الطبيعية.

وأخذ مختار شهيقًا طويلًا ثم زفيرًا هادئًا، فيما كان حامد منصتاً له بكل جوارحه، بعدها استكمل الأول حديثه قائلًا:

- وبالمناسبة، لا يقتصر ما أحب تسميته بـالعهر المقنع على منظومة الزواج في مجتمعاتنا العربية فحسب، إذا تأملت حولك فستجد ممارسيه منتشرين بين مختلف فئات المجتمع، ولكن تحت مسميات مختلفة، ففي الإعلام تجد من يبيعون كلمتهم ويدمرون وعي مجتمعهم الذي هو مسؤوليتهم مقابل المال، وفي السياسة تجد من

يبيعون كلمة الحق مقابل المنافع الشخصية، وبين رجال الدين تجد من يوظفون الدين لخدمة أغراضهم مقابل حصتهم في الرفاهية، وفي الخدمات الحكومية تجد من يبيعون خدماتهم ووظائفهم وضمائرهم مقابل الرشاوى، وفي التعليم تجد من لا يشرحون مناهجهم التعليمية إلا في الدروس الخصوصية، إلخ. أَوَتدري يا حامد ما هي أفضل فئة ضمن هؤلاء من وجهة نظري؟

- ما هي؟

- العاهرة الحقيقية والقواد الحقيقي، لأنهما على الأقل واضحين مع عملائهما منذ أول لحظة وحتى إتمام الصفقة، ولذا عادةً ما أجد راحتي وأنا بينهم،

لا لشيء إلا لوضوحهم معي منذ البداية، وذلك على عكس آخرين أشعر بالتقزز والرغبة في التقيؤ كلما تذكرتهم أو رأيتهم، إذ اعتادوا ممارسة العهر ليلًا ونهارًا متسترين خلف عباءة الشرف والوطنية والأخلاق والمبادئ والدين والعادات والتقاليد والمُثُل العليا.

ليضيء هاتف مختار في تلك اللحظة منبهًا إياه بورود مكالمة كان في انتظارها منذ الصباح، فينظر إلى شاشة هاتفه قبل أن يلتفت نحو حامد مستكملًا حديثه:

- والآن اعذرني، فقد وصل أحد أهم عملائي إلى البازار ولذا سأدعك لتستكمل يومك.

ويغادره تاركًا إياه يفكر في منطقه الغريب وطريقة رؤيته للحياة، قبل أن ينهض حامد من جلسته لاستكمال ما تبقى من عمله، حتى حلَّ عليه الليل أخيرًا فأغلق المكان، ويكون ذلك هو آخر يوم تخطو قدماه نحوه، بخاصة بعدما فقد دافعه الوحيد للمضي قدمًا في حياته وما كان يصبره على ما كان يشهده فيها من معاناة، فينعزل داخل قبوه لبضعة أيام قبل أن يقرر بيع المنزل لتسديد حصة إحسان منه لورثتها، وكذا التخلص من كل ماضيه الأسود فيه.

ليبدأ بعدها حياةً جديدةً من اختياره، كانت أولى خطواتها تأجير شقة متواضعة -ليست بالتأكيد بروعة منزله ولكنها بالطبع أفضل من قبوه الذي

ظل حبيسه طوال الأعوام الماضية- مكونة من غرفة وصالة تكفي لتخزين كتبه الحبيبة ورفيقة دربه وكذا إقامته، ثم البحث عن عملٍ أبعد ما يكون عن مهنته السابقة، كي لا تعود إلى ذاكرته في يومٍ من الأيام مَن قتلت البقية الباقية من روحه وقلبه، أما ما تبقى معه من مال فقد وضعه في حساب بنكي لحفظه لوقت الحاجة.

•••

الفصل السابع

حلَّ الصيف أخيرًا وانتهى الموسم الدراسي، لتُودِّع نور الصف الثاني الثانوي وما شهدته فيه من مشقة، تمهيدًا لاستقبال الصف التالي الذي عُدَّ بالنسبة إليها عامَ الحسمِ في مسارها الدراسي والخطوة الأهم في تحقيق حلمها الأكبر، لذا ومن أجل حصد بعض الراحة قبل استقباله، كان لزامًا عليها أولًا أن تجلس في المقهى الذي يجاور البحر،

والذي دومًا ما أحبت الجلوس فيه في أثناء قراءتها رواياتها الرومانسية وتناولها مشروبها بينما تتراقص خصلات شعرها الحريرية من فعل هواء البحر الذي كان يحتفي بوجودها وعودتها إليه بعد اشتياق، مداعباً تفاصيل وجهها البريئة والمرحة وكذا جسدها الذي تفجرت فيه منابع الأنوثة معلناً للجميع نضوج صاحبته، التي كان الجميع من حين إلى آخر يحاولون استراق نظرة منها رغمًا عنهم لما امتلكته من جمال قلما وُجِد مثله، كان من ضمنهم شابٌّ وسيمُ الطلة في منتصف العشرينيات، ظل يراقبها في صمت بنظرات كساها إعجاب لم يستطع ستره عمن حوله.

وتمر الأيام وتتكرر الجلسات التي تكررت معها نظرات ذاك الشخص نحوها، فكانت تتجاهلها تارة وتتقبلها على استحياء تارة أخرى، لما لمسته تجاهه من شعور بالفرحة لم تعهده من قبل، لكنها نجحت في إخفائه بصمتها وكذا بالتفاتها إلى البحر كلما تلاقت أبصارهما. إلى أن أتى اليوم الذي صادف أن دخل فيه إلى المقهى، ليجد الطاولات جميعها مكتظة عن آخرها، فيما كانت هي جالسةً وحدها كعادتها، وهو ما دفعه إلى التجرؤ ومحادثتها متحججًا بذاك الأمر، رغبةً منه في التقرب منها:

- مساء الخير.

نور بعد أن رفعت رأسها تجاهه لتحدثه بتعجب:

- مساء النور!

- أنا أعلم أن طلبي يبدو سخيفًا، ولكن كما ترين فالطاولات جميعها مكتظة، فهل من الممكن أن أجلس هنا حتى تفرغ إحداها؟ وأعدك أنني لن أزعجك.

- ولِمَ تظن أنني سأوافق على هذا الطلب؟!

ليشعر بالإحراج من ردها، وهو ما دفعه إلى محادثتها بخجل قائلًا:

- أنا آسف، لم أقصد إزعاجك، أعتذر منك!

ويدير وجهه عنها استعدادًا للرحيل، إلا أنها في اللحظة نفسها نطقت بحياءٍ قائلة:

- أعتذر لك عن سوء ردي، يمكنك الجلوس إذا أردت.

فيرد عليها بابتسامة غمرت وجهه:

- شكرًا لكِ.

ليسود بينهما دقائق كساها الصمت والتوتر، قبل أن تكسره قائلة دون أن ترفع وجهها عن روايتها:

- اسمي نور.

- تشرفت بمعرفتك، وأنا فريد.

- تشرفت بك.

ويأتي في تلك اللحظة النادل لسؤاله عما يرغب في تناوله، فيسارع بالرد بأسلوب مهذب قائلًا:

- اسأل الآنسة أولًا.

لتتوتر نور فجأةً قبل أن ترد قائلة للاثنين:

- شكرًا جزيلًا، لقد تناولت مشروبي منذ قليل.

فريد موجهًا حديثه إلى نور:

- أرجوكِ أنا مُصِر، ويمكنك اعتبار ذاك المشروب اعتذارًا عن تطفلي.

فترد بحرج قائلة:

- حسنًا، كابتشينو بالبندق لو سمحت.

فيسجل النادل الطلب قبل أن يدير وجهه تجاه فريد لسؤاله عن طلبه، ليرد عليه قائلًا:

- وأنا أيضًا، الطلب ذاته.

ويغادر النادل بمجرد تسجيله الطلبات، فتتحدث نور بعدما احمر وجهها من شدة الخجل الذي امتزج بالغضب الطفولي:

- هل أستطيع أن أعرف لم طلبت مثل طلبي؟!

فريد بابتسامة هادئة:

- هذا مشروبي المفضل.

- فقط؟!

- أجل، وهل يوجد سبب آخر؟!

- أتمنى أنْ لا يوجد سبب آخر!

فريد بالابتسامة ذاتها:

- هل أنتِ عصبية هكذا دائمًا؟

- لا.

- إذًا لم أنتِ عصبية هكذا الآن؟

نور بانفعال:

- أنا لست عصبية.

فريد بعد أن تحولت ابتسامته إلى ضحكات حاول جاهدًا كتمها:

- حسنًا حسنًا، أنا من أساء الظن.

لتُحوِّل ابتسامة فريد انفعالها إلى خجل، ما جعلها تُطأطِئ رأسها قبل أن تقول:

- اعذرني على ردود أفعالي، فلم يسبق لي أن جلست مع أحد لا أعرفه من قبل، وربما هذا هو سبب توتري وردود أفعالي الغريبة.

- لا عليك، أنا متفهم الأمر تمامًا.

وتمر دقائق عاد فيها الصمت كي ينشر ظلاله على جلستهما مرة أخرى، إلى أن جاء إليهما النادل حاملًا لهما المشروبات التي سرعان ما وضعها ليغادرهما بعدها، ويبدأ كلٌّ من الطرفين في تناول

مشروبه، الذي ما إن أنهياه حتى طلب فريد الحساب، لتسأله قائلة:

- ماذا تفعل؟!

- سأدفع الحساب بكل تأكيد.

- حساب مشروبك بالتأكيد.

- أرجوكِ دعيني أتولى دفع حساب الطاولة بالكامل اليوم!

- ومن قال لك إنني سأسمح لك بدفع حساب طلباتي؟!

- هذا أمر بسيط أتمنى أن تتقبليه مني، ويمكنك اعتبار ذلك اعتذارًا عمليًّا مني عن اقتحامي خلوتك وجلستك وتطفلي عليك.

•••

- لا، لا أستطيع بالطبع!

- أرجوكِ، تقبلي مني هذه المرة على الأقل.

نور بعد أن توردت وجنتاها:

- حسناً.

لينهض من فوره بمجرد دفعه الحساب، قبل أن ينطق لسان نور بما صار في قلبها:

- إلى أين أنت ذاهب؟ هل ستغادر باكرًا هكذا؟

- أنا مضطر إلى الذهاب الآن لارتباطي ببعض الأعمال، وبإذن الله سأعود قريبًا، أرجو ألا أكون قد أزعجتكِ بتطفلي على جلستك اليوم، تشرفت حقًّا بمعرفتك يا نور.

وتكون تلك أول مرة تَطرَب فيها أذناها باسمها هكذا، لتجد نفسها تبتسم له دون إرادة منها تعبيرًا عن فرحتها التي كستها بتلك الصدفة الرائعة، ويغادر فريد المقهى في الوقت نفسه الذي تعلق بصرها بظلّ ذاك الشاب، الذي لم ينجح في اقتحام خلوتها فحسب، بل وسرقة قلبها معه دون إرادة منها، ليظل بصرها معلقًا بمدخل المكان طوال الأيام التالية؛ بحثًا عنه.

★★★

لم تكن حالة فائزة هي الحالة الأخيرة من نوعها التي يتم تسجيلها داخل القسم الذي يعمل فيه الملازم أول خالد نجيب، بل كانت مجرد البداية

لسيل من البلاغات المشابهة، بدأت تنهمر قطراته على نقاط وأقسام الإسكندرية كافة، ليبدأ خالد بالتحقيق في تلك البلاغات بشكل منفرد في أوقات فراغه، بعدما تملكه الشك تجاهها بحثًا عن حلقة الوصل التي تربط بينهم، ليتمكن في النهاية من وضع عددٍ من النقاط، التي على الرغم من بساطتها فإنها كانت في نظره تحمل درجةً عاليةً من الأهمية. وهو ما دفعه إلى عرضها على زميله في العمل، وكذا رئيسه المسؤول عنه النقيب ناصر الدين جلال، الذي ما إن اطلع عليها حتى ضمها إلى ملف فائزة وبقية الفتيات ودفنها معه في الدرج نفسه، قبل أن يقول بكل استهزاء:

- خالد باشا، لِمَ تُهلِك وقتك في قضية تافهة مثل تلك؟ فلنفترض صحة نظريتك، ما المشكلة من وجود شخص أو أكثر وراء اختفاء أولئك الفتيات؟ ألا ترى معي أنه يقدم لنا خدمةً جليلةً بتخليص المجتمع وتنقيته من تلك الفضلات والمراحيض البشرية؟!

خالد مصدومًا من قول قائده:

- لا، بالطبع لا، حتى إن كن يعملن في مِهَن حقيرة مثل تلك، فهُنَّ في النهاية مواطنات ويجب علينا حمايتهُن، هذا ما تعلمناه وهذا ما يجب أن نعمل لأجله.

ليقهقه ناصر من قول خالد قبل أن يقول له:

- مواطنات! حمايتهن! ألم أقل لك يا خالد باشا إنك مثالي بشكل مبالغ فيه؟! إن هؤلاء الفتيات ما هن في الحقيقة إلا مجرد حثالة بشرية لا يحق لهن العيش، إن عشن فلإمتاع من يريدون إفراغ شهوتهم داخلهن، وإن مِتْنَ فلا بكاءَ عليهن. انسَ تلك القضية يا خالد باشا وابذل جهدك في القضايا التي تهم المواطنين الأهم ومن لهم علينا حقًّا حقُّ الحفاظ على أمنهم.

فيفقد خالد أعصابه في تلك اللحظة على قائده بسبب استهزائه به، لتدور بينهما مشادة كلامية سرعان ما تمت السيطرة عليها بتدخل بقية الضباط الذين يعملون معهما في القسم، والذين نجحوا في الفصل بينهما قبل أن يتطور الأمر إلى أكثر من ذلك في

حضور ومراقبة عدد من أمناء الشرطة الذين آثروا عدم التدخل مفضلين المراقبة عن بُعْد في صمت. كان من ضمنهم أمين الشرطة صالح نصار، يبلغ من العمر خمسة وأربعين خريفًا، له كرْشٌ متدلٍّ ووجهٌ ممتلئ ونظرةٌ ثاقبة أدرك من خلالها أن خلف تلك المشادة يكمن أمر ما قد يساوي مكافأةً ماليةً يستطيع حصدها من الصحفيين الذين كثيرًا ما يتواصلون معه لحصد سبق صحفي جديد، ليسعى إلى اقتناص ذاك الملف الذي ما إن تمكن من الوصول إليه وتصفحه حتى اتصل بياسر محمد، وهو شاب يعمل مُعِدًّا في واحدٍ من أكبر برامج «التوك شو» في مصر، إذ إنه في نظره كان الوحيد القادر

على تقييم ذاك الكنز الواقع بين يديه، لذا سرعان ما أتى ليقول له:

- خيرًا يا عم صالح، ما ذاك الخبر الذي حدثتني عنه؟

صالح بمكر شديد:

- تستطيع أن تسميه خبر الموسم.

- إلى تلك الدرجة! لِمَ؟

- مكافأتي أولًا.

ياسر بنظرة ملؤها الثقة:

- أنت تعرف يا عم صالح أنني لا أبخل عليك بشيء، وإلا ما كنت اتصلت بي، أخبرني بما لديك، وإذا كان الأمر يستحق فلن أبخسَكَ حقك.

ليبدأ صالح في سرد ما اكتشفه في الملف، قبل أن يختم بقوله:

- ها، هل أستحق مكافأة مجزية أم لا؟

ياسر كمن اكتشف لتوه كنز علِي بابا:

- تستحق؟! بالتأكيد تستحق، إن تلك القضية ستقلب الرأي العام بالكامل وستكون حديث المجتمع أجمع، لك ما تريد يا عم صالح ولكن أرجوك كن رحيمًا معي ولا تطلب مني مبلغًا

كبيرًا، فإني بالكاد أتقاضى من عملي بضع مئات من الجنيهات.

صالح بنبرة ساخرة:

- حسنًا كما تشاء، ادفع ما تريد، فأنت تعلم أنا أحب تشجيع الشباب الطموح والمعطاء أمثالك.

ليبادله ياسر النبرة الساخرة ذاتها قبل أن يدفن يده في جيبه لإخراج ما فيها من مال كي يعطيه لصالح:

- كم أنت عظيم يا عم صالح!

ويأخذ منه الملف، ليعرضه في صباح اليوم التالي على المذيع الذي يعمل تحت إمرته، والذي سرعان

ما فجر به تفاصيل تلك القضية التي صارت بين ليلة وضحاها حديث الرأي العام ولمدة ليست بالقصيرة.

***

حل أخيرًا اليوم المنتظر لنور، إذ عاد فريد إلى المقهى مرة أخرى بعد طول غياب، ليجدها جالسة في المكان نفسه الذي تركها فيه تتلفت في لهفة بحثًا عن شيءٍ ما حتى وقعت عيناها عليه، لتدير وجهها في التو واللحظة نحو البحر في حياءٍ اختلطَ بالفرحة والدلال، مما دفعه إلى التبسُّم من فعلها قبل أن يتجه نحوها ليحدثها فيما ترتسم الابتسامة الهادئة على وجهه:

- صباح النور يا نور، كيف حالك؟

•••

ليطير قلب نور فرحًا بتذكره إياها حتى هذه اللحظة، قبل أن تحدثه قائلة بعد التفافها نحوه:

- صباح الخير، كيف حالك؟ فريد، أليس كذلك؟

فريد مبتسمًا من قولها:

- أجل، أنا فريد، هل تسمحين لي بالجلوس؟

لتبادله نور الابتسامة التي سارع بعدها بالجلوس على المقعد المقابل لها، قبل أن تحدثه بغضب مصطنع:

- ولكني لم أسمح لك بالجلوس.

فريد بابتسامته التي لم تفارقه منذ دخوله المكان:

- أفهم من ذلك أنكِ لا تودين جلوسي معك؟ حسنًا سأنهض.

إلا أنه ما كاد يقوم عن مقعده حتى قاطعته نور بصوت خفيض:

- لا، لا مانع عندي.

فيستقر مرة أخرى في موضعه، ليسود الصمت بينهما لعدة دقائق ظل فيها يتأمل ملامحها، في الوقت الذي حاولت مرارًا أن تدير وجهها عنه، سواء بحجة قراءتها الرواية التي جلبتها معها أو لتأمل البحر، قبل أن تقطع ذاك الصمت بسؤالها بعدما فشلت كل محاولاتها في التهرب من نظراته:

- هل أستطيع أن أعرف من تكون على الأقل؟

- اسمي فريد كما سبق أن ذكرت لكِ، سني ثلاثة وعشرون عامًا، أعمل مع والدي في شركة استيراد وتصدير يملكها ولذا عادة ما أسافر إما لعقد الصفقات أو لمتابعة أعمالنا داخل وخارج البلاد.

- وأنا نور أدرس في الثانوية العامة.

- تشرفت بمعرفتك يا نور.

- بالمناسبة، أعتذر لكَ عما بدر مني في المرة السابقة.

- لا تهتمي فأنا مقدر رد فعلك.

- أفهم من ذلك أن سبب تغيبك عن المقهى طوال المدة الماضية هو إحدى سفرياتك تلك؟

- تستطيعين قول ذلك.

- وهل تم العمل على أكمل وجه؟

- الحمد لله.

ويستمر نقاشهما وجلستهما إلى قرابة ساعتين، ما إن انتهيا حتى نظر فريد إلى ساعته قبل أن يستأذن نور بالانصراف، فتسأله دون تردد:

- متى ستأتي مرة أخرى؟

- الجمعة القادمة بإذن الله، وإذا أحببتِ فسأحاول أن أكون هنا كل جمعة بعد الساعة الثالثة عصرًا.

- حسنًا.

ويغادرها في تلك اللحظة بعد أن امتلأ قلبها بالسعادة والفرحة.

لتتكرر بعدها اللقاءات بينهما في كل جمعة رغبة منها في حصد تلك الحالة التي لم تشعر بها طوال حياتها قبل الجلوس والحديث معه، والتي صارت تدمنها على الرغم من عدم استيعابها ماهية شعورها تجاهه، هل هو إعجاب لما لمسته فيه من جرأة نجح بها في اقتحام حياتها وخصوصيتها التي لم يستطع أحد اختراقها بتلك الطريقة قبله قط، أم إنه حقًّا ذاك الحب الذي طالما قرأت عنه في الروايات الرومانسية التي دائمًا ما أحبت الاطلاع عليها في أثناء خلوتها. لتتطور علاقتهما معًا بمرور الأيام وتكرار اللقاءات، فتحدثه تارةً عن حلمها ورغبتها

في أن تصير طبيبة، وكيف أن ذاك الحلم مصيريٌّ بالنسبة إليها، وتارةً أخرى عن حياتها وكيف أنها نشأت يتيمة الأب ووحيدة أمها، لا أخ لها ولا سند في الحياة سواها، وأن أمها هي التي دائمًا ما دللتها وسعت إلى تحقيق كل أحلامها وحرمت نفسها من الارتباط بأي أحد من أجل إحسان رعايتها.

وترتقي مرتبة فريد داخل قلبها في خلال ذلك الوقت، ليتحول من شابٍّ أُعجِبَت به إلى صديق مخلص ثم إلى حبيب وأخيرًا معشوق وداعم إضافي لها في مسار تحقيق حلمها، إذ أخبرها في آخر لقاء جمعه بها قبيل اعتكافها داخل منزلها استعدادًا للامتحانات النهائية أنها إذا نجحت في اجتيازها

وتحقيق حلمها فإنه يعدها بمفاجأة ستغمر قلبها بالفرحة.

وبالفعل، فور أن حلَّ يوم النتيجة ذهبت إلى المقهى كما اتفقا لتخبره بها، انتظارًا لتنفيذ وعده لها، فيقابلها بفرحٍ مبتسمًا لما حققته من إنجاز، مخرجًا من جيبه علبةً بنية اللون تحوي خاتمًا فضيًّا مطعمًا بالأحجار الكريمة، فتحها أمامها قبل أن يتحدث قائلًا:

- هذا الخاتم هو هدية نجاحك، أتمنى أن يكون مقاسك، وأعدك أنه بمجرد حلول الصيف القادم فسيتحول هذا الخاتم إلى شبكةٍ ذهبيةٍ كاملةِ الأركان، فقد تحدثت مع أهلي طوال المدة الماضية

عنك ووعدوني أنه عند إتمامك عامك الأول في الكلية سنأتي لمقابلة والدتكِ ونخطبك منها، على أن يتم زفّنا إلى عش الزوجية بعد تخرجك مباشرة، فما رأيك في هذه المفاجأة؟!

لتحول تلك الكلمات القليلة والمفاجأة الصغيرة يومَ نور إلى أسعد وأروع أيام حياتها على الإطلاق، ليس فقط لنجاحها في تحقيق حلمها الذي سعت وراءه طوال الأعوام الماضية، وإنما لأن ارتباطها بمن تعلَّق قلبها به صار تحويله إلى حقيقة أقرب إليها من حبل الوريد، ويغادر الاثنان المقهى في ذاك اليوم والفرحة تكسو كل خلايا جسدهما وروحهما.

الفصل الأخير

مرت أسابيع الإجازة الصيفية سريعًا، لتلتحق نور بكلية الطب وتصير في أشهر قلائل مثالًا يحتذى به في التفوق والالتزام، فتلاحقها من رفيقاتها وزملائها طوال وجودها داخل الحرم الجامعي نظرات الحسد والغيرة، ليس بسبب تفوقها الدراسي فحسب، بل لأنها على عكس كثيرات من زميلاتها لم تكن تسمح لأحد من زملائها

بالاقتراب منها أو محادثتها في أي أمور خارج إطار الدراسة، لأنه ببساطة كان لديها مَن سبقهم جميعًا في دكِّ حصون قلبها وعقلها واحتلالهما بالكامل، غير سامحٍ لأي مخلوق بالاقتراب من أسوارها حتى ولو في غيابه.

وفي أحد الأيام، انتهت محاضراتها سريعًا، فعادت أدراجها إلى منزلها عبر الحافلة، وقد جلست طوال رحلتها لا يشغل تفكيرها سوى سؤال واحد لا ثاني له، ألا وهو: ما الذي سترتديه في يوم الجمعة القادمة من أجل استقبال ومقابلة محبوبها ومعشوقها بعد غياب طال لأكثر من الأسبوعين بسبب ظروف عمله وسفره؟

تلك الجمعة التي سرعان ما حلت حتى انطلقت من فورها تجاه المقهى الذي اعتادت مقابلته فيه، مرتديةً أبهى حلة لديها، فتجلس في انتظاره وتمر الدقائق عليها طوالًا، استهلكتها في تأمل مياه البحر وأمواجه، ليطل عليها أخيرًا قاطعًا تأملها وتفكيرها بصوته العذب مازحًا قبل أن يجلس أمامها:

- ملاكي الصغير، كيف حالك؟ هلّا تسمحين لي بالجلوس؟

نور بعد أن أشرق وجهها وتهللت أساريرها:

- فريد! اشتقت إليك كثيرًا! لم تأخرت عليّ؟! لقد طال انتظارك.

- اعذريني فقد كنت أنهي بعض الأعمال، المهم طمئنيني عليكِ يا ملاكي، ما هي أخبار تقدمك في الدراسة؟ وكيف قضيتِ أيامك الماضية؟

نور بفخر وزهو:

- الحمد لله، بالنسبة إلى الدراسة فإني في تقدُّمٍ دائمٍ حتى صار يُضرَب بي المثل في التفوق لدى الدفعة، أما عن كيفية قضائي أيامي في غيابك، ففي الحقيقة...

- لم توقفتِ؟! أكملي، أنا أسمعك.

لتستكمل نور حديثها بعد أن تورَّد خداها من شدة الخجل:

- في الحقيقة، إني لم أستطع أن أتعايش مع يومي بشكل طبيعي في أثناء غيابك، وعلى الرغم من محاولاتي المستمرة التي باءت جميعها بالفشل، فقد أصبحت رؤيتك والحديث معك بالنسبة إليَّ حاجةً مُلحَّةً ما عاد بإمكاني الاستغناء عنها، باختصار، لقد صرتَ إدماني الخاص، لا أدري كيف وصل الأمر بي إلى هذا الحد، ولكنها الحقيقة!

- أنا أيضًا، كنت أحسَبُ كل ما مضى من ساعات انتظار لتلك اللحظة التي أجلس فيها أمامك مرة أخرى وأُشبِع عينيَّ وروحي بالنظر إلى أجمل إنسانة رأتها عيناي، لكن أوتدرين، إنَّ غيابي عنك طوال المدة الماضية جعلني أدرك أنه مهما جلست أمامك ونظرت إليكِ فإنني لا أشبع ولا

أمل قط من تأمل جمال ملامحك ونقاء قلبك وروحك التي لا مثيل لها في هذا العالم.

فتبتسم نور حُبًّا وفرحًا بما سمعته من معسول القول والغزل في حقها، بينما استكمل هو حديثه بسعادةٍ كمن حقق نصرًا مؤزرًا:

- ها هي قد رأيتها أخيرًا بعد طول انتظار!

- لا أفهم، ماذا تقصد؟!

- أقصد تلك النظرة التي ارتسمَت على وجهك والابتسامة والفرحة التي ملأت كل ذرة من قلبك وملامحك، ولدي استعدادٌ أن أدفع عمري كله ثمنًا لبقائها راسخةً في وجدانك وملازمةً كلَّ ذرةٍ من كيانك.

•••

نور واضعة يدها على يده في الوقت نفسه الذي نظرت إليه نظرةً اختلط فيها الشوق بالخوف من الفقدان:

- أطال الله عمرك وجعل يومي قبل يومك، أرجوك لا تذكر الموت مرة أخرى، فإني ما عدت أستطيع أن أعيش من دونك، فأنت بالنسبة إليَّ لم تعد حبيبي فقط، بل صرت عالمي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى؛ أنت أبي الذي نشأت دون أن أراه، أخي الذي تمنيتُ أن يرزقني الله به ويكون سندي ودعمي في الحياة، فارس أحلامي الذي طالما حلمت به في يقظتي ومنامي حتى صار واقعًا أمامي، والشخص الذي أتمنى من كل قلبي أن

يكون زوجي وشريك حياتي حتى وفاتي. أرجوك يا فريد، عدني بأنك لن تتركني ما حييت!

فريد بعينين تفيضان شوقًا وحنينًا:

- أعدكِ يا ملاكي الصغير، وحتى لا أرى نظرة الحزن تلك في عينيكِ مرة أخرى، فإني أعدكِ بمفاجأةٍ في عيد ميلادك ستجعلك في عالمٍ آخر من فرط الفرحة.

نور بسعادة غامرة:

- حقًّا؟! ما هي تلك المفاجأة؟ أرجوك أخبرني!

- إذا أخبرتكِ بها الآن فلن تكون مفاجأة، ولكن تأكدي أنها ستكون من العيار الثقيل. المهم، لا

أريد أن أرى نظرة الحزن تلك على وجهك مرة أخرى، اتفقنا؟

- اتفقنا يا أغلى ما عندي.

- والآن هيا بنا نغادر الآن كي لا تتأخري عن والدتك.

- ألا يمكن أن نجلس قليلًا؟ فإني لم أشبع من الجلوس معك بعد.

- لا تقلقي يا ملاكي، سنجلس معًا في الأيام القادمة حتى تمِلّي مني، المهم ألا تتأخري عن المنزل الآن.

- حسنًا، هيا بنا.

•••

لينهض الاثنان بمجرد أن أنهيا حديثهما، كي يوصلها إلى أقرب وسيلة مواصلات تُقِلُّها إلى منزلها، وتغادره بمجرد امتطائها إحداها وهي تكاد تطير من فرط سعادتها، حالمةً بيوم عيد ميلادها ذاك والذي ستتلقى فيه من محبوبها هديةً ستجعلها في عالم آخر كما وعدها. في حين سار هو في الاتجاه المعاكس لها بعد أن اطمأن على مغادرتها، لترتسم على وجهه ابتسامة كاد يتساقط من بين ثناياها الخبثُ والكراهيةُ والحقدُ على نور وأمها كما يتساقط السم الزعاف من ناب الأفعى قبل أن تنقض على ضحيتها، فرحًا باقترابه أخيرًا من تنفيذ آخر خطوات خطته.

***

نجح ياسر في مسعاه، وبالفعل صارت تلك القضية وذاك الملف حديث المجتمع أجمع بين ليلة وضحاها، إذ تصدرت الصحف والمجلات، بخاصة المعارضة منها، بعد تفجير برنامج «الحقيقة» -الذي يعمل فيه ياسر- عناوينَ على شاكلة: «هل عاد جاك السفاح إلى الحياة مرة أخرى؟!»، «هل يوجد حقًّا سفاحٌ في عروس البحر الأبيض المتوسط؟»، «مَن وراء خطف الفتيات واختفائهن؟». لتنتقل عدوى تلك العناوين والتساؤلات إلى وسائل التواصل الاجتماعي وكذا المنظمات الحقوقية التي ظلت تتساءل سرًّا تارة وجهرًا أخرى: «ما هي المعايير التي تحدد بها الدولة حق المواطنة؟»، «على أي أساسٍ يؤمِّن جهاز الأمن أمنَ المواطنين؟»، «إلى

متى ستظل العنصرية والطبقية هي الحاكمة علينا؟!».

فيتردد صدى تلك التساؤلات في الفضاء الرقمي، لِيُنقَل منه إلى العالم الواقعي عبر البرامج الحوارية والإخبارية التي تكفل بعضها باستضافة ممثلين عن تلك المنظمات وكذا ممثلين عن وزارة الداخلية، كي يدور بينهم نقاش أقرب في وصفه إلى الصراع والعراك اللفظي. في حين اهتمت أخرى بتسليط الضوء على مآسي أهالي أولئك الفتيات دون الكشف عن هويتهم، مراعاةً لظروفهم وطبيعة حياتهم، وكيف عاملهم رجال الشرطة وكذا حجم الإهمال الذي لاقوه منهم في ملفاتهم. وما إن تنتهي تلك البرامج حتى ترتد آثارها مرة أخرى على

شبكات التواصل، التي بدورها تردُّ الكرة إلى ملعب البرامج الحوارية التي تُزَكي هي الأخرى نيران تلك القضية أكثر فأكثر بعدما نجحت في تحويلها إلى قضية رأي عام.

ويحل صباح اليوم التالي الذي أشرقت فيه شمسه داخل أحد أقسام الشرطة، وتحديدًا مكتب أسامة محمود الجديد الذي حصل عليه بعد حصده رتبة عقيد وكذا منصب رئيس المباحث، وقد كان أسامة في تلك اللحظة يضع بين ثنايا يده اليمنى إحدى سجائره التي طالما اعتاد أن يحرق عبر لهيبها كل ما يقع على كاهله من ضغوطات وصعوبات في العمل، في حين كان ذهنه شاردًا في المكالمة التي وردته صباحًا من مدير الأمن الذي أكد عليه

في خلالها على ضرورة إحراز خطوات جدية في قضية اختفاء فتيات الليل، التي صارت تمثل صداعًا مزمنًا لوزارة الداخلية، بخاصة بعدما سُلِّط الضوءُ عليها من قبل الإعلام وتلقفتها منظمات حقوق الإنسان، وهو ما دفعهم إلى سحب ملف القضية بالكامل من القائمين عليها وتحويل أوراقها إليه، نظرًا إلى ما عرف عنه من كفاءة في حل مثل تلك القضايا، مع منحه الصلاحيات اللازمة كافة لتسهيل مهمته بهدف إتمامها في أسرع وقت والتخلص منها إلى الأبد. ولكنه ما كاد يتذكر آخر كلمات المكالمة حتى أفاق من شروده على إثر ملامسة جمر التبغ لأصابع يديه، ليلاحظ على إثر إفاقته أن المكتب قد عَبِق بدخان السيجارة التي

لفظت آخر أنفاسها بين يديه، ليسارع بدفنها في مرقدها الأخير وإزالة كل ما تبقى عليه من أثر لها قبل إضرام النار في جسد إحدى شقيقاتها، التي وضعها في فمه مباشرة هذه المرة كي يضمن استنشاقه دخانها، قبل أن يتصفح مرة أخرى أوراق وملفات تلك القضية العجيبة منذ البداية وحتى اللحظة، وبخاصة ما دُوِّن فيها من ملاحظات بخط الملازم أول خالد نجيب.

تلك الملاحظات تلخصت في نقطتين، على الرغم من بساطتهما فإنهما قد احتوتا على معلوماتٍ شديدةِ الأهمية؛ أولهما وجود تشابه كبير بين ظروف وصفات الضحايا جميعهن، بداية من طبيعة عملهن كفتيات ليل أو عاملات في ملاهٍ

ليلية، وصولا إلى الصفات الجسمانية لهن، التي على الرغم من تعدد حالاتها وتنوعها، فعند التعمق في فحص ملفات كل حالة على حدة سنجد أنهن يمكن تقسيمهن إلى مجموعتين رئيستين؛ الأولى تتشارك في الشعر الأسود الحريري الطويل والعينين الواسعتين والفم الصغير والجسد الممتلئ البارز الانحناءات، فيما تتشارك المجموعة الثانية في الشعر الأشقر وقصر القامة وملامح الوجه الطفولية. وهو ما يجعل احتمالية وجود جانٍ متسلسلٍ وراء تلك القضايا أمرًا لا يستهان به. أما ثاني تلك الملاحظات وهو الأهم، نظراً إلى تأكيدها صحة الملاحظة الأولى، شهادات آخر من رأوا بعض أولئك الفتيات قبل اختفائهن، بخاصة اللواتي كنَّ

يعملن في الملاهي الليلية، بأنهن قد خرجن مع شاب، وإن اختلفت أسماؤه حسب الأماكن، فقد أجمعوا أنه الشخص نفسه بعدما رُسِمَ له شكلٌ تصوريٌّ بناءً على شهادات بعضهم. إذ تميز بامتلاكه شعرًا ناعمًا بنيَّ اللون وبنيانًا طويلًا وجسدًا نحيفًا ووجهًا وسيمًا يتخلله عينان عسليتان واسعتان، اللتان على الرغم من وداعتهما، فإنهما كانتا تبثّان بشكلٍ لا إراديٍّ الرهبةَ والهيبةَ في قلب كل من تقعان عليه.

ليمسك حسام في تلك اللحظة الشكل التصوري للمشتبه به، معتبرًا إياه هو أهم خيوط تلك القضية وأفضل وسيلة تساعده على إغلاقها، مما دفعه إلى إصدار الأمر للعاملين تحت إمرته بضرورة التحري

عنه للوصول إليه في أسرع وقت. ولكن ما كادت تمر عدة أيام على سعيه خلف ذلك الخيط حتى اكتشف إنه مجرد سراب يلهث وراءه الظمآن وطريق مسدود لا فلاح فيه، فذاك الشابُّ لم يكن له أي سجلٍّ إجرامي، والسيارات جميعها التي رُصِد أنه كان يذهب بها إلى الملاهي الليلية اكتشفوا بعد تتبعها أنها سيارات كان يتم تأجيرها بالليلة بأوراق إثبات شخصية مزيفة تختلف في كل مرة عما قبلها، وهو ما جعله أشبه بالشبح الذي يطال كل من حوله ولا يستطيع أن يطاله أحد. ليشعر حسام ومَن معه جميعهم بالعجز أمام تلك القضية، نظراً إلى نقص معطياتها، فلم يعد بأيديهم شيءٌ سوى انتظار أن تدقَّ أبوابهم وتضجَّ

مضاجعهم في أي لحظة حالةُ اختفاء جديدة وكارثة كبرى، غير مدركين أن تلك الحالة ستكون على بعد أيام وستحمل بين طياتها المفتاح السحري لحل ألغاز تلك القضية كلها.

***

حلَّ أخيرًا اليوم الموعود، عيد ميلاد نور، ذاك اليوم الذي كان يحسب له الجميع اللحظات في انتظار قدومه، كلٌّ لأسبابه الخاصة. ففي الوقت الذي كانت تُعِد عبير فيه مراسمَ الاحتفال بتلك الذكرى مع نور ابنتها، التي كانت مشغولةً بدورها بالتفكير في لحظة مقابلتها محبوبها ومعشوقها، كان مختار جالسًا مع حامد في شقته المتواضعة في

حضور كلٍّ من حسام وخليل وجاسر وكذا فريد، يضعون اللمسات الأخيرة في خطتهم.

ليقاطعهم حامد محدثًا مختار بنبرة كساها الحزن، رغبة منه في عدم إيذاء أخته الصغرى:

- هل ما زلت مُصِرًّا على رأيك؟

- وهل عندك حل آخر؟!

- ولكنها لا ذنب لها في أي شيء!

- وأنت أيضًا، لم يكن لك يومًا ذنب في أي شيء.

- المذنبة أمها وليس هي، فلم تؤذيها؟!

- أولًا اسمها نؤذيها وليس أوذيها، فما نحن جميعًا سوى أوجه متعددةٍ لعملة واحدة، ثانيًا وهو الأهم، لو لَمْ توجد نور في الحياة لما تحولت أمها عليك في المعاملة وما أجبرَت أباك على طردك من منزلك وحرمانك من مالك، وما قابلتَ أرملة خالك بتلك الطريقة وتحكمت بدورها في حياتك ومصيرك ومستقبلك، ولا صرت الآن ضعيفَ الشخصية بهذا الشكل وتحتاج إليَّ في كل خطوة. باختصار، نور هي الظلام الأعظم الذي بوجوده دُمِّرَ مستقبلك، وبإخفائها من الحياة سيتحقق الانتقام الملائم لنا.

حامد يائسًا:

- ولكن هذا ليس عدلًا!

ليقهقه مختار سخريةً من قول حامد، قبل أن ينهض من جلسته ليصرخ في أذنه بعدما صار ملاصقًا له، في الوقت الذي كان يحاول حامد جاهدًا صمَّ أذنيه عنه:

- عدل! عن أي عدلٍ تتحدث؟! إلى متى ستظل بهذه السذاجة والعفوية؟! ألا ترى في أي مجتمع تعيش؟! أنت تعيش في مجتمع حرمك عدلُه من أن تحيا مع أبيك، وجعل قانونُه أرملةَ خالك تتحكم فيك، وأجبر رفقُه ولينُه محبوبتَك أن تتزوج من يكبرها في السن بعشرات الأعوام فقط لامتلاكه المال الذي اشتري جسدها به كما يشتري الجارية

من سوق الرقيق. إذا كنت لم ترَ كل ذلك بعد، فدعني ولآخر مرة أوضح لك الصورة الحقيقية لعالمك الأسود، المجتمع الذي تحيا فيه هو مجتمع يبدو على ظاهره الفضيلة والمثالية، ولكنه في الحقيقة مغموسٌ في قاع الرذيلة حتى النخاع، مجتمع تُعَد الرشوة والمحسوبية فيه شيئًا طبيعيًّا، الفساد هو قمة النجاح، نجومه وقدوته هم رُوَيْبِضته وأتفه من فيه، والكائنات الوحيدة التي تملك فيه صفاتٍ آدميةً وإنسانيةً هي الحيوانات، أما الإنسان فهو عن جدارة أقذر وأحقر وأشر مخلوقاته. مجتمع سادَ الظلم كل أركانه وصار قانونُ البقاء للأظلم والأشد إذلالًا هو السائد. مجتمع لم ولن يتذوق أمثالُك فيه طعمًا للعدل أو للمساواة إلا عندما

يوضع بجوار أحد الأثرياء في مثواه الأخير تحت أرضٍ واحدةٍ بمساحةٍ واحدةٍ دون تفرقة، هذا إذا صادف ونلت شرف ذاك الحق. باختصار يا صديقي، المجتمع الذي تحيا بداخله هو مجتمع مُشوَّه، أشبه بشخصٍ تغلغلت الغرغرينا في كل أطرافه حتى فاح منها العفن وكريه الروائح ولم يعد له حل سوى تقطيع جسده وحرقه حتى لو كان حيًّا كي يرتاح الجميع من أذاه.

- أفهم من قولك أنه لا يوجد أمل؟!

مختار بحزم:

- طريقنا بدأناه معًا منذ سنوات طوال، وسننهيه سواء شئت ذلك أم أبَيْت، وتذكر أنك مَن استدعيتني في البداية، فلا تندم الآن.

حامد دافنًا رأسه بين كفيه:

- ولكني لم أتمنَّ قط أن تُهرَق كل تلك الدماء!

- الدماء أُهرِقَت وقد كان، وما عاد هناك فرصة للتراجع.

حامد بعد أن رفع رأسه تجاهه في محاولة منه لاستجدائه:

- إذا أردت القتل فاقتل عبير، هي أصل البلاء، ودَعْ نور فلا ذنب لها.

•••

- وأُرِيح عبير بقتلها؟! هل هذا هو العدل من وجهة نظرك؟! إن الراحة للظالم ظلم، وأكبر عدل أن يتجرَّع الظالم من كأسه نفسه، هي حرمَتْك من أبيك ومالك ومن أن تحيا حياةً طبيعيةً من أجل ابنتها، ولذا فالعدل أن تعيش ما تبقى من حياتها محرومةً من ابنتها الحبيبة التي دمرت حياتك بسببها، وليس هذا فحسب، بل وتظل على يقين أنها هي من حكمت عليها بالموت في اليوم الذي طردتكَ فيه من منزلك.

- والفتيات اللواتي قُتِلن، ما ذنبهن؟!

- نحن في وضع أشبه بالحرب على القيم الفاسدة لمجتمع فاسد، وهي كأي حرب، لا بد لها من

خسائر، لذا يمكنك اعتبار هؤلاء الفتيات واللواتي تشابهن في الشكل مع مَن آذوك ودمروا حياتك هُنَّ خسائر تلك الحرب وحطب نارها التي أعلم يقينا أنها ستحرقنا في النهاية، ولكننا وقتها سنكون راضين تمامًا لإتمامنا هدفنا الذي وُجِدنا من أجله.

وينتصب مختار خلفه بمجرد إتمام جملته الأخيرة، لتحتل تعابيرَ وجهه حالةٌ حادةٌ من الحزم والحسم، ختم بعدها حديثه مع حامد:

- خلاصة القول الذي لا قول بعده لأني سئمت منك ومن سلبيتك، حكمَ الإعدام أصدرناه معًا على كلِّ من آذاك في اللحظة التي أوجَدْتَني فيها بداخلك، بخاصة بعدما أوجَدْتُ أنا بدوري مَن

ساعدوني على تحقيق أهدافنا بالطريقة نفسها التي أوجَدَتْني بها. ولذا، فإذا أردت أن تتراجعَ عن رغبتك في الانتقام فلتتراجع، ولكن في تلك الحالة لن نسمح لك بأن تظهر للحياة مرة أخرى، وستظل حبيسًا بداخلنا مكتفيًا بمشاهدة كل ما سيحدث من خلال أعيننا في صمتٍ مُطبِق، كما كنت دائمًا.

ليبدأ مختار في تلك اللحظة بامتصاص عقل وروح حامد داخل جسده فور أن أنهى قوله، كما اعتاد دائمًا قبل أن يحكم السيطرة عليه للمرة الأخيرة، فينير هاتفه في تلك اللحظة معلنًا عن ورود اتصالٍ إليه من نور، أدار وجهه على إثره إلى الرباعي الهادئ الذي كان يشاهد حديثه مع حامد في سكونٍ تام، ليحدثهم قائلًا:

•••

- إنها نور، بالطبع كل شخصٍ فيكم يعرف دوره اليوم جيدًا، والآن اندمجوا بداخلي كما اعتدتم إلى أن يحين دوركم في التحرر ولتتولَّ أنت السيطرة الآن يا فريد.

فيخترق كلٌّ من حسام وخليل وجاسر جسدَ مختار بسرعة البرق، الذي كان منذ دقائق تحت سيطرة حامد، قبل أن ينهض فريد من جلسته كي يتقدم بخطى هادئة نحو مختار الذي سرعان ما تسلم منه الهاتف وكذا زمام إدارة ذاك الجسد، الذي وُزِّع بين خمسةِ عقولٍ سادسُهم أصلهم وحبيسهم، قبل أن يفتح الخطَّ على نور التي حدثته بصوتٍ خافتٍ يفيض حنينًا واشتياقًا:

- فريد، اشتقت إليك!

- وأنا أيضًا يا ملاكي الصغير، لطالما اشتقت إلى رؤياك والاحتفال معك بذاك اليوم المميز، فاليوم ليس فقط عيد ميلادك واليوم الذي أنرتِ فيه الكون بضيائك، بل هو ذكرى أول يوم وقعت فيه عيناي عليكِ وأسرْتِ وملكْتِ قلبي وروحي بجمال ملامحك ونقاء قلبك.

لتمر عدة لحظات ساد فيها الصمت بينهما بعدما كساها الخجل والحياء من قوله الذي جعلها تطير فرحًا من مدى حبه لها، أو هكذا ظنت، قبل أن يكسر هو ذاك الصمت بسؤاله:

- هل ارتديتِ ملابسك؟

- أجل.

- إذن ألقاكِ في المقهى الذي طالما تقابلنا فيه، ومن هناك سنقضي معًا أجمل يوم في حياتنا.

نور هامسةً بصوتٍ يكاد لا يُسمَع خشية سماع أمها إياها:

- حسنًا يا ملك قلبي، ألقاكَ هناك.

ويغلق الطرفان هاتفهما لترتسم على وجه فريد ابتسامة هادئة غادر على إثرها الشقة -التي آوتهم لعدة سنوات بعد مغادرتهم منزلهم القديم- بلا رجعة.

أما عن نور، فما إن أنهت مكالمتها حتى احتضنت هاتفهًا وسارعت لمغادرة منزلها كي لا تتأخر على محبوبها، ولكنها ما كادت تقترب من بابه حتى أوقفتها أمها لتسألها:

- نور، إلى أين تذهبين في ذاك الوقت يا حبيبتي؟

نور متلعثمة قليلًا:

- سأذهب لزيارة صديقة لي، وبعدها سأتوجه للجلوس في المقهى قليلًا ثم أعود.

- ألا يمكن لصديقتك تلك أن تأتي لقضاء الوقت معك؟ اليوم عيد ميلادك يا حبيبتي وأريد أن نحتفل به معًا.

- هذا صعبٌ للأسف يا أمي، على العموم لا تقلقي، فلن أتأخر أبدًا في العودة.

- حسنًا يا حبيبتي، في رعاية الله.

وتغادر على الفور منزلها متجهةً إلى المقهى وهي في قمة سعادتها، غير مدركة أنها بكل خطوة تخطوها تجاهه تقترب من المصير المحتوم الذي قد قُرِرَ لها سلفًا.

وفي المقهى وبعد انتظارٍ قارب خمسةً وأربعين دقيقة، وصل أخيرًا فريد، ليجدها قد كساها الملل وطول الانتظار، فحدثته بعصبية طفولية بمجرد وقوع بصرها عليه:

- فريد، أين كنت؟ لقد انتظرتك طويلًا!

•••

- اعذريني يا ملاكي، فقد كنت أضع اللمسات الأخيرة للمفاجأة التي أحضِّرها لكِ.

نور بفرحة ولهفة:

- ألن تخبرني ما هي تلك المفاجأة؟!

- لو أخبرتك فلن تكون مفاجأة، لا تتعجلي، بضع دقائق وستعرفين كل شيء، والآن هيا بنا من هنا.

- ألن نجلس هنا قليلًا ونشرب شيئًا على الأقل؟

- لا، لا داعي إلى ذلك فنحن في عجلةٍ من أمرنا، ثم ألا تريدين معرفة تفاصيل المفاجأة التي أعددتها لكِ؟!

- بالطبع أريد، حسنًا هيا بنا، ولكن أرجوك لا أريد أن أتأخر عن المنزل.

- لا تقلقي يا ملاكي فلن تتأخري، سأجعلك تصِلين في الميعاد المحدد.

ويسارع بطلب الحساب من النادل بمجرد إتمامه جملته قبل أن يغادرا المكان ممتطيين سيارته، التي سرعان ما انطلقت بهما، لتسأله نور بعد مضي نصف ساعة استهلكاها في التهام الطريق:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- لقد قلتُ لكِ سابقًا، لا تتعجلي وستعرفين كل شيءٍ في وقته، ولكن بدايةً فلنشرب هذا العصير، إذ يبدو أن زحام الطريق سيجعلنا نتأخر قليلاً.

•••

ويخرج زجاجتي عصير فيعطيها إحداهما فيما يتناول هو الأخرى، وتمر عدة دقائق على تناول كليهما العصير، شعرت بعدها نور ببعض الدوار والنعاس، لتسأله وهي تغطي فمها من أثر التثاؤب:

- حبيبي، هل ما يزال أمامنا كثير من الوقت؟ فقد بدأت أشعر بالنعاس.

بهدوء مبالغ فيه ودون حتى أن يلتفت لها بعدما تغيرت نبرة صوته:

- لا، قاربنا على الوصول إلى وجهتنا، بمجرد أن تخلدي إلى النوم من أثر المخدر سنكون قد وصلنا.

نور محاولة عدم تصديق ما سمعته أذناها:

- ماذا؟! ماذا تقول؟!

- نسيت أن أخبركِ يا ملاكي، إن زجاجة العصير التي تناولتِها قد وضعتُ فيها مخدرًا قويًا، وما تعانينه الآن من رغبة في النعاس إنما هو الأثر المباشر لذاك المخدر، وفي خلال أقل من دقيقة ستَغُطّين في نومٍ عميق، وهذا هو أول فصول مفاجأة عيد ميلادك اليوم.

ليلتفت إليها ويُهنِّئها وعلى وجهه ابتسامةٌ صفراء، قبل أن يدير وجهه إلى الطريق مرة أخرى بعدما أخرج نظارةً من جيبه وأسرع في ارتدائها:

- كل عام وأنتِ بألف خير!

نور بعد أن أصابها الهلع وحاولت يائسةً فتح باب السيارة التي فوجئت به موصدًا بإحكام:

- فريد، ماذا تريد مني؟! لماذا وضعت لي مخدرًا في العصير؟ أرجوك دعني أنزل! أريد أن أعود إلى منزلي!

- لا تحاولي فكل أبواب السيارة مغلقة، اهدئي واتركي المخدر يأخذ مجراه لأن عصبيتك وانفعالك لن يفيداكِ بشيء.

وعلى الرغم من محاولات نور اليائسة في المقاومة وعدم سماعه، فإن المخدر قد غلبَها في النهاية، إذ سرعان ما أفقدها وعيها وجعلها تغطُّ في سباتٍ عميقٍ جعل فريد يُغيِّر وجهته، كي ينطلق بأقصى

سرعة إلى الشاليه، حيث ستدور هناك آخر فصول انتقامه.

***

أسدل الليل ستارَه على السماء معلنًا حلول المساء، إذ كانت عبير جالسة في صالة منزلها منتظرةً قدوم ابنتها للاحتفال معها بعيد ميلادها، لتمر عليها لحظات انتظارٍ طوالٍ حاولت استغلالها تارةً في تجهيز ما لم يُعَدّ بعد للاحتفال، وتارةً أخرى في تصفح القنوات الفضائية التي كانت أغلب برامجها الحوارية تتناول قضيةَ الساعة، ألا وهي قضية اختفاء الفتيات اللواتي تتشابهن في الصفات الجسمانية مع ابنتها الحبيبة، وهو ما زرع بداخلها

الخوف والقلق من تأخر ابنتها، بخاصة بعد ما بذلته من محاولات مستميتة للاتصال بها لم تُفضِ سوى إلى اللا شيء، الأمر الذي دفعها في النهاية وبعد انتظار طال إلى الذهاب إلى المقهى الذي عرفت أنها عادةً ما تحب الجلوس فيه، لتسأل عنها العاملين في المقهى وهي تحمل صورةً لها، فيخبرونها أنها خرجت منذ عدة ساعاتٍ مع شابٍّ اعتادت الجلوس معه في الأيام الماضية، وهو ما جعل جنونها يجن، فما كان لديها من شك صارَ الآن أقرب إلى اليقين.

لتتجه عبير على الفور مهرولةً إلى أقرب قسم شرطة كي تقدم بلاغًا عن اختفاء ابنتها، لكن عدم مضي أربعة وعشرين ساعة على اختفائها حالَ دون

تقديمه، ولم يفلح إلحاحُها ورجاؤها للعاملين في القسم الذين أخبروها بأن تعود إليهم غدًا، إذ إن هذا هو القانون ولا حيلة لديهم. لترتد إلى بيتها خائبة الرجاء حاملةً خُفَّيْ حنين ولا حيلة لها سوى انتظار عبور ابنتها من عتبة المنزل أو مضي الأربعة وعشرين ساعة بأقل قدرٍ من الخسائر، فتقضي بذلك أسوأ ليلةٍ في حياتها.

***

بدأ أثر المخدر في الانقشاع عن نور، لتفتح عينيها وتجد نفسها مُقيَّدةً بإحكام إلى السرير الذي انتصف الغرفة بواسطة أحزمته وشرائطه كي لا تستطيع المقاومة أو الفرار من مصيرها. ولكن على

خلاف ما حدث مع جميلة، فقد أُجرِيَت على السرير تعديلات بسيطة، بحيث تكون نور واقفةً قُبالَة مختار، الذي كان جالسًا أمامها واضعًا إحدى قدميه على الأخرى في انتظار استيقاظها بفارغ الصبر، وما إن حرَّكَت جفنيها حتى صرخ في وجهها بفرحةٍ عارمة:

- صباح الخير، أخيرًا استيقظتِ!

نور بعد أن كساها الفزع والرعب:

- فريد، أين أنا؟ وماذا أفعل هنا؟ ولماذا وضعتني على هذا السرير وربطتني بهذه الطريقة؟

- أين أنتِ؟ أنتِ في الشاليه الخاص بي. ماذا تفعلين هنا؟ نحتفل معًا بعيد ميلادك كما وعدكِ

فريد ولكن على طريقتنا الخاصة. لماذا وضعتكِ على هذا السرير وربطتكِ بهذه الطريقة؟ للإجابة عن هذا السؤال، دعيني أحكي لكِ قصة طفلٍ صغيرٍ يدعى حامد.

لينهض من جلسته كي يبدأ الطواف حولها لتجسيد ما سيسرده لها بشكلٍ مسرحيٍّ بارع:

- بدأت قصة حامد بوفاة أمه بعدما بلغ من العمر ثلاثة أعوام، في ذاك الوقت كان والده هو كل من تبقى له في الحياة، إلى أن دخلت حياتهما امرأة شديدة الجمال، لكنها في الوقت نفسه كانت شديدة النعومة كالأفعى، قادرةً على تلوين جلدها وارتداء الوجوه الزائفة بمهارة كمهارة الحرباء، وهو

ما جعلها تنجح في إيقاع والده في شباكِ عشقها وتعليق الطفل في حبائل أمومتها الزائفة، وما إن مضى عامان على دخولها إلى حياتهما حتى أظهرت وجهها الحقيقي، حين تأكدت من حملها في ابنتها، لتتحول منذ تلك اللحظة معاملتها مع الجميع بنسبة مئة وثمانين درجةٍ كاملة. فحامد الذي كانت تعامله كابنها لم تكتفِ باضطهاده وإرهابه فحسب، بل وتسببت في طرده من منزله وحرمانه من أن يحيا مع أبيه وأخته، مستغلةً في ذلك تعلُّق والده بها، إذ أذلَّته وأهانته حتى أماتتّه كمدًا وحزنًا فيما بعد. ليظهر في تلك المرحلة خال حامد، الذي آواه ورعاه واعتبره هو وزوجته ابنهما الذي لم يحظيا به قط. وتمر الأيام فيُتوَفَّى خال حامد هو الآخر، كي

يسقط ذاك الطفل ومنذ تلك اللحظة في قلب بجحيمٍ مستعرٍ قضى فيه سنواتٍ طوالٍ من عمره، كان معذباه الرئيسان هما أرملة خالة التي دمرت حياته عقابًا له على ذنبٍ لم يقترفه، وأرملة أبيه التي لم تسمح له بالعيش معها حتى ولو خادمًا تحت قدميها. حينها أَوْجَد حامد شخصًا آخر بداخله معتبرًا إياه صديقه ورفيقه وأخاه الناصح، صحيحٌ أنه كان يُخالِفه في كلِ شيء، سواء المظهر أو الجوهر، إلا أنهما اتفقا معًا على الانتقام من كل مَن آذاه في حياته. ذاك الصديق والرفيق كان هو أنا، مختار.

فيقف أمامها في تلك اللحظة كي ينحني لها ويُحيِّيها مثلما يُحيِّي الممثل جمهورَه على عتبه المسرح قبل أن يقول:

- صحيحٌ أنني كنت متفقًا معه على المبدأ ولكني قررت أنْ لا أشارك في الانتقام بيدي، بل عن طريق بضعة أصدقاء ساعدوني في تنفيذ مخططي، كلٌّ بطريقته الخاصة. أوجدتهم بداخلي بالطريقة نفسها التي أوجدني بها حامد بداخله، هؤلاء الأصدقاء هم حسام وخليل وجاسر وأخيرًا فريد الذي أحببتِه، ليبدؤوا معي رحلةَ انتقامنا من كل مَن أذى حامد في حياته، وكانت أولى محطاتها هي أرملة خاله، إذ تسلل جاسر إلى منزلها في مساء أحد الأيام بعدما تأكد من إغلاق النوافذ والمنافذ كافة، ففتح أنبوبة الغاز على مصراعيها، حتى عبأ المنزل بالكامل في خلال دقائق لتموت بالاختناق عقابًا لها على تدمير حياة حامد وخنق مستقبله.

حقيقةً لا أستطيع أن أصف لكِ كَمَّ السعادة التي شعرت بها وأنا أراقب عبر عينيه -وهو واقف بالقرب منها واضعًا قناعًا واقيًا من الغاز على وجهه- تعابيرَ وجهها وهي تختنق وتلفظ أنفاسها الأخيرة.

ويتوقف لحظةً أمامها كمن نسي شيئًا، ليحدثها بصوتٍ خفيضٍ واضعًا سبابته على فمه، تعبيرًا عن رغبته في الكتمان وعدم البوح بالسر:

- نسيت أن أخبرك، حامد حتى اللحظة لا يعلم أننا مَن قتلنا أرملة خاله، فهو من النوع الذي يدين بالولاء قليلًا لصلة القرابة والدم، حتى لو كانت على حساب حياته ومستقبله، فإياكِ أن تخبريه كي

لا يحزن أو يشعر بالذنب، ويكفي أنه يعلم أنكِ الآن بين يديَّ نحتفِل معًا.

وما كاد يكمل كلمته الأخيرة حتى صدرت منه ضحكةٌ مجنونةٌ في الوقت نفسه الذي كانت تنسال الدموع من عيني نور بلا توقف كالشلال، في حين أكمل مختار حديثه:

- عمومًا هو نائم الآن وأنا ومَن معي سيكون لنا حق السيطرة على جسده منذ تلك اللحظة طوال اليوم، بل طوال الحياة، فأنا أعلم أنه لن يستطيع العيش مع ذنب قتل أخته على يديه.

نور مقاطعة مختار قائلة:

- أخته؟!

- آه نسيت أن أخبرك! إن حامد الذي أحدثكِ عنه هو أخوكِ الأكبر، والشيطانة التي دمَّرت حياته هي أمك ذات الوجه الملائكي، ولسوء حظك فقد ورثتِ عنها تفاصيلها الشكلية كلها، هذا بالطبع علاوةً على تركة الدم والظلم التي ورثتِها عنها لحظة حضورك إلى هذه الدنيا، فالأبناء كما هو معروف لا يرثون آباءهم في أموالهم وأملاكهم فحسب، بل يرثون منهم أيضًا آثامَهم وذنوبَهم، وهذا هو سبب وجودك اليوم، فأمك من غرست شجرة الظلم في حياة حامد وأنتِ اليوم من ستحصدين ثمارها على يدي صديقه. المهم، نعود إلى موضوعنا فأنا صراحةً متشوقٌ إلى سرد تفاصيل انتقامنا كلها لكِ قبل وصولنا إلى المحطة الأخيرة. بعد أن قتلنا

معًا أرملةَ خال حامد والمدعوة إحسان التي لم تعرف أي شيءٍ عن الإحسان، ظننتُ أن دوري بذلك قد انتهى وأن حامد سيستطيع العيش بمفرده، بخاصة أنه قد التقى بفتاةٍ أحبَّته وأحبها، ولكن لسوء حظه وحسن حظي فإن تلك الفتاة كانت كما توقعتُها، مجرد عاهرة باعَت جسدها لأول شخصٍ دفع لها ولأهلها مقابلًا جيدًا. وعلى الرغم من محاولاتي المستمرة لجعله يدرك حقيقة العالم الذي يعيش فيه حتى تنمو له أنيابٌ تجعله قادرًا على التعايش مع وحوشه، الذين منهم أمك بالمناسبة، فإنه دائمًا ما كان يُصمِّم على أن يكون مجردَ حَمَلٍ وديعٍ لا دورَ له في الحياة سوى أن ينزف الدماء ويُلتَهَم حيًّا، وهو ما جعل أصدقائي

-بعلمه أحيانًا ومن دون علمه كثيرًا- يتلذذون بالانتقام بقتل فتيات الليل اللواتي كن يشبهن في شكلهن أمكِ وأنتِ وتلك العاهرة التي تزوجت آخر تاركةً فؤادَ حامد مدمرًا. ولكن على الرغم من محاولاتهم التي استمرت لعدة أعوام، فإن دماءهُنَّ ما كانت لتطفئ أبدًا نار الانتقام التي اشتعلت بداخلنا، بل على العكس، كانت دائمًا ما تزكيها وتجعلها متعطشةً إلى دماءٍ أكثر وأكثر، وهو ما جعلني أتوصل إلى حلٍّ وحيدٍ قادرٍ على اقتلاع تلك المشكلة من جذورها، أتدرين ما هو ذاك الحل؟!

فتكتفي نور بتحريك رأسها بالنفي في ظل انهيارها وتوالي الصدمات تلو الصدمات فوق رأسها، إلى أن قال مختار بعد أن لمعت عيناه من فرط السعادة:

- ذاك الحل هو اختفاؤك من الحياة! أجل، كما سمعتِ فلا تُصدمي، فلولا وجودكِ لما تحولت أمكِ على حامد ولا أظهرت وجهها الحقيقي، وما سيطرت وتحكمت إحسان في مستقبله ولا تدمرت حياته، ولا قابل عاهرةً مثل أمل تلك التي حطمت البقية الباقية من قلبه وأمله في أن يكون له حياة آدمية سليمة. أنتِ الأساس، أنتِ أصل المشكلة وأصل العلاج، وقتلكِ هو ما سيريح الجميع وسيحقق الانتقام الأمثل لنا.

لتمر لحظات قليلةٍ من الصمتِ بينهما، لم يقطعها سوى نحيب نور وإكمال مختار لقوله بلسانِ كلِّ مَن بداخله:

- والحقيقة، أنا وأصدقائي كلهم الذين شاركوني في مسيرة الانتقام خاصتنا، وآخرهم فريد الذي عرفتِه طوال المدة الماضية، نريد أن نشكركِ بشدةٍ لأنه ما كنا لنوجَد في تلك الحياة وما كنا لنعيش بداخله لنشهد معًا قذارة ذاك العالم الذي انتقمنا له منه، لولا ما ارتكبته أمكِ من جرمٍ في حق حامد قبل ميلادك. ولذلك وتعبيرًا منا عن امتناننا لك، سنمنحكِ الاختيار الذي لم نمنحه لأحد من قبلك، هل تحبين أن يكون موتكِ اليوم بشكلٍ سريعٍ وموجَز، أم بشكلٍ بطيءٍ ومرهِق؟

•••

نظرت إليه نور بحزن وصمت، ولكنه كان صمتًا أبلغَ من ألف كلمة، فقد أُحيلَت عيناها إلى كأسين من الدماء من شدة ما عانته في تلك الدقائق من بكاء، ليستكمل مختار حديثه معها في هدوء كامل:

- حسنًا، سأعتبر صمتَكِ ذاك ردًّا منك برغبتك في إنهاء حياتك بشكلٍ سريع، كذلك كي لا أجعل حامد يحزن بشدة على موتك، بخاصة لأنه كان يرى أنَّ لا ذنبَ لكِ في ما جرى له.

وتتحول تعابير وجهه إلى الجدية والصرامة قبل أن ينطق محدثًا الفراغ:

- والآن دورك يا حسام لتتولى المهمة.

•••

ليسارع بعدها بإمالة السرير الذي قُيِّدت إليه بغرض إعادته إلى وضعه الأفقي، ثم تغطية وجهها بمنشفة جافة سرعان ما سكب عليها الماء دون توقفٍ، فتبدأ صرخات نور المكتومة وانتفاضاتِ جسمها بالاشتعال أسفله بشكل لا إرادي في محاولةٍ للبقاء وطلبًا للنجدة، حتى توقفت في النهاية وساد الصمت بشكلٍ كاملًا معلنًا وفاة نور وانقضاء نحبها، ليحدث نفسه مرة أخرى بعدما أنهى مهمته:

- دوركَ يا جاسر للتخلص من الجثة كالمعتاد.

فينهض من جلسته قبل أن ينقل جثة نور إلى وعاء البولي إيثلين الذي سبق أن أُغرِقَت فيه جثة

جميلة، ليفعل معها الفِعلة ذاتها ويتخلص منها بالطريقة نفسها إلى الأبد، كما اعتاد دائمًا.

***

أشرقت الشمس أخيرًا لتُعلِن بدء يومٍ جديد، سارعت فيه عبير بالتوجه مهرولةً نحو القسم لتقديم بلاغٍ عن اختفاء ابنتها الوحيدة، بعد ليلة عصيبةٍ لم تذُقْ فيها للنوم أو الراحة طعمًا، فحُوِّل ذلك البلاغ مباشرةً إلى العقيد أسامة، بعدما تم فرزه والتأكد من مطابقة مواصفات نور لحالات الفتيات المختفيات.

وتصل عبير إلى منزلها قرب الظهيرة، فتجد على عتبته رسالةً تسببت في تسارع خفقات قلبها بمجرد

قراءة أولى حروفها، وفقدان وعيها ودخولها في غيبوبة ما إن أتمَّتها، إذ كان نصها:

«ماما عبير، بخصوص اختفاء ابنتك، فأودُّ أن أجيبك عن تساؤلك وأطمئن قلبك.. إن مَن دمرتِ حياة الأبرياء من أجلها، اليوم بيدكِ انتهى أجلها!».

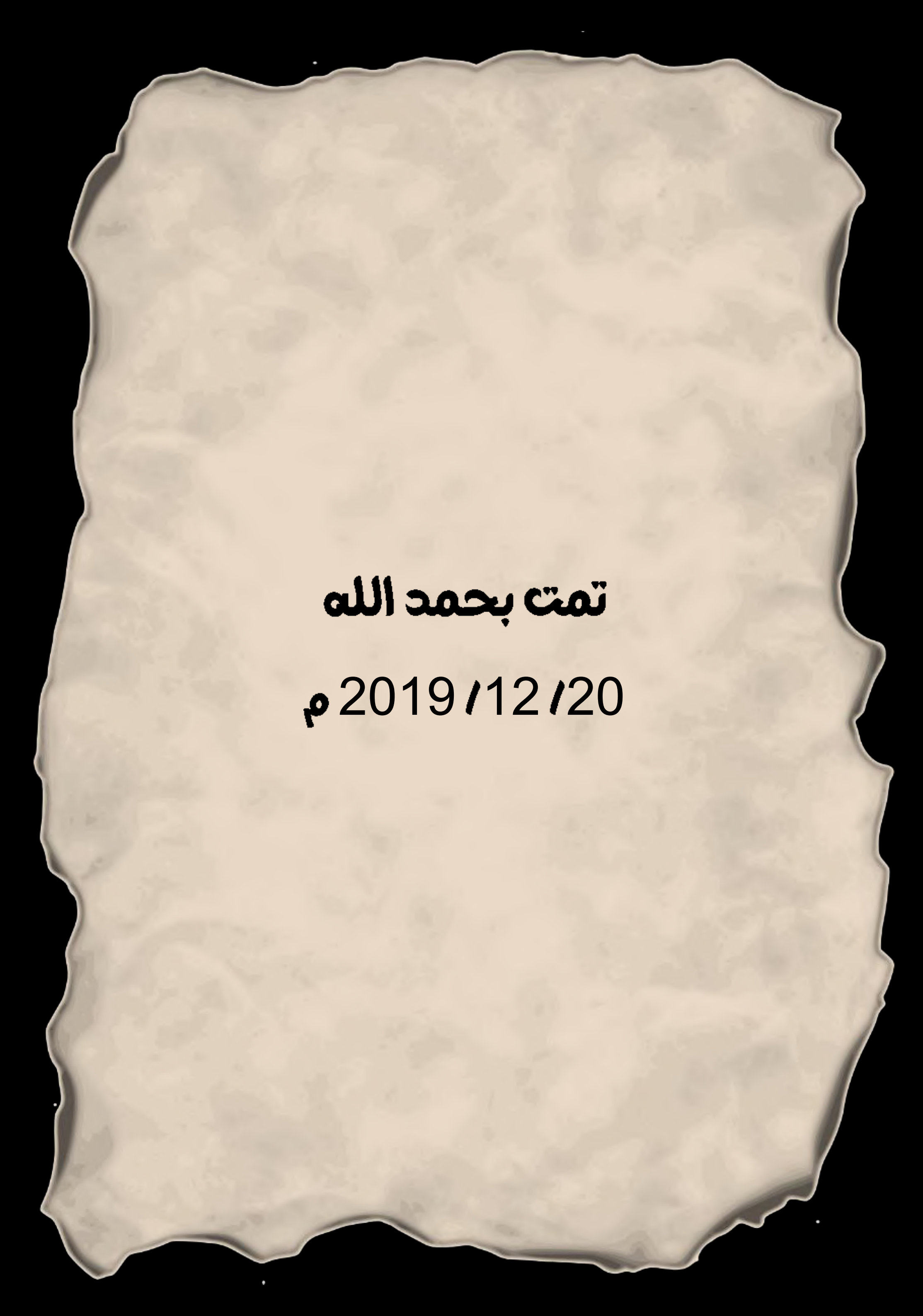
وتمر عدة ساعات على عبير وهي على تلك الحال، بينما سار جسد حامد بين الطرقات، بعدما صار تحت سيطرة رفقاء حياته وشركاء عقله الذين كانوا في قمة الانتشاء فرِحين بإتمام انتقامهم والهدف الأساسي من وجودهم، لتدق الساعة الثانية ظهراً معلنةً بدء خروج الطوفان البشري من أعمالهم

ومصالحهم ومدارسهم إلى شوارع المدينة هربًا من محبسهم الذي قضوا فيه ساعات الصباح الرتيبة، فيسيروا حوله في طرقاتها هائمين على وجوههم، لا يشغل بالهم سوى كيفية التخلص من الهموم والمشاكل والالتزامات التي حُمِّلت على أكتافهم وصاروا يرغبون في التخلص منها بأي ثمن، فهذا تجده يفكر في كيفية إدارة منزله وتلبية احتياجاته في ظلِّ ما صار يعانيه من زيادة مستعرة في الأسعار، وذاك لا يشغل باله سوى حلمه بتسديد ديونه والتزاماته والتخلص منها إلى الأبد بعدما تراكمت عليه وأصبحت تدهسه في دوامة الحياة كما يَدهس شِقَّي الرحى حبيبات القمح الطازجة، في حين كان ثالثهم لا همَّ له في دنياه سوى إرضاء

زوجته الجديدة وكذا المحافظة على أبنائه من أرملته المتوفاة وعدم التخلي عنهم في محاولة يائسة منه للوصول إلى حلٍّ وسطيٍّ يرضي الجميع، غير مدرك أن أنصاف الحلول لا توصل أصحابها أبدًا إلى بر الأمان، بل دائمًا ما تسلمهم إلى بوابة مزخرفة خاطفة للأبصار يختبئ خلف بابها جحيمٌ مستعرٍ تبتلع نيرانه كل من يقترب منها، ليعيش بين ألسنتها هو وكل من له صلة به ما تبقى لهم من أيام.

وسط كل هؤلاء، سار جسد حامد بخطواتٍ هادئةٍ حتى ذاب بينهم في النهاية.

•••



تمت بحمد الله

20/ 12/ 2019 م

مؤلفات الكاتب

1. رواية "الأمير الأحمر"، التي صدرت:
   - ورقيًّا عن دار "مدبولي للنشر والتوزيع" عام 2018م.
   - إلكترونيًّا عن دار "إبداع للنشر الإلكتروني" عام 2020م، اضغط للتحميل.
     www.aseeralkotb.com/index.php/books/9494

2. دراسة "صناعة الإرهاب"، التي صدرت عن "مؤسسة إبداع للنشر والترجمة والتوزيع" عام 2019م.

طرق التواصل مع الكاتب



www.facebook.com/ahmed.algilany10



www.facebook.com/ahmed.algilany11





@ahmed_algilany1



002 01281986530



أحمد الجيلانى

جهة اتصال في واتساب



امسح هذا الرمز باستخدام كاميرا واتساب
للحصول على رقمي